آخر نزلة
رواية
شيرين سامي

شيرين سامي

الحجرات

رواية

facebook.com/alkarmabooks twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks الطبعة الأولى ٢٠٢١

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢١

© شيرين سامي ٢٠٢١

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

شيرين سامي .

الحجرات: رواية / شيرين سامي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٦٢٥

١- القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٢٣١ / ٢٠٢١

تصميم الغلاف: كريم آدم

خطأ بسيط أدى إلى كل شيء.

اشتركت في مسابقة لتصوير الحشرات في «المجلة الملكية البريطانية للعلوم الطبيعية»، لم يكن السر وراء دخولي المسابقة اهتمامي بالحشرات أو بالمجلات والقنوات العلمية، بل إنني في الواقع كنت أهرب دائمًا من الحشرات، إذ ما إن أراها حتى ينتابني شعور بأنها في فمي، في صحن طعامي، تتحرك تحت بنطالي أو في ثيابي الداخلية، وذلك على العكس من ابني، الذي يفرح بظهور الحشرات، بل يطلق عليها الأسماء ويصاحبها.

نشأ خوفي من الحشرات من إحساسي الغريب في أحد الأيام بجسم جامد وزلق تحت ضرسي، كانت هذه هي النحلة التي شفطتها مع المثلجات لأنها كانت عالقة في القصبة. لا يزال المشهد حاضرًا في ذهني: أنا أبصق النحلة وأمي تكاد تتقيأ وأختي تضحك كما لم تضحك في حياتها. كرهت بعدها كل الحشرات، لكني اكتفيت بالهروب، مثل عادتي مع كل المشكلات التي واجهتني، والتي كانت تخلق لديَّ نفس شعور النحلة تحت ضرسي، فلا أحتمل بلعها ولا أقدر على هرسها؛ أكتفي ببصقها.

أما سبب اشتراكي بالمسابقة فلم يكن فقط رغبتي في الفوز بالجائزة، ولا عشقي للتصوير لأنني أمارسه بالفعل، بل لأنني، وبعد أن تخطيت الخامسة والأربعين من عمري، انتابتني رغبة عارمة في أن أجرب كل الأشياء التي لم أجربها من قبل، حتى لو كانت مسابقة لتصوير الحشرات. بدأت أيضًا أدون بعض النصوص الفلسفية عن رؤيتي للحياة، كما بدأت أتعلم طبخ الأصناف التي أحبها. وأصبحت أتمشى في الشوارع كل يوم، بعض التمشية والتأمل اليومي ساعداني على استحضار أفكار تصوير الحشرات، الزوايا والإضاءة والخلفية، وتنفيذها. أما ابني الشاب فهو من ساعدني على الاقتراب منها وملاطفتها حتى ألتقط الصور بانسجام.

أعرف أن أمهما تشجعهما على زيارتي، يقضي معي ابني الكبير كل عطلاته، أحيانًا يأتي بكتبه ويقضي معي بعض أيام الدراسة، لا نتحدث إلا عن دراسته أو عملي أو تصميم الجرافيك الذي يحبه، أو التصوير الذي أحبه. بعكس أخيه الأصغر الذي نادرًا ما يأتي لزيارتي، وإذا أتى لا يتحدث إلا عن الكتب التي يعشقها وتسرق أغلب يومه.

كنت أجلس في حجرة المعيشة، التي هي نفسها صالة الاستقبال ومكان تناول الطعام والنوم أحيانًا، أمرر الوقت بمطالعة فيسبوك وتويتر والواتس آب؛ اليوم موعد إرسال نتيجة المسابقة. مثل كل الشغوفين الذين أصبحت منهم

مؤخرًا، كنت أدخل على الإيميل كل عدة دقائق، وحين لا أجد رسالة جديدة أدخل على صندوق البريد العشوائي (سبام)، الذي وجدت فيه بالفعل ـ بعد عدة ساعات ـ رسالة جديدة، لكنها كانت رسالة منها.

كانت رسالتها تفوح بالشراسة، مكتوبة بطريقة هادرة وكلمات مقتضبة، وعلى الرغم من ناريَّتها لم تكن بها رائحة شياطٍ وإنما رائحة خفيفة من رماد، كنت أقرأها فأشعر بزوايا الحروف الحادة تشكُّني وتهددني، بل وتتوعدني. كانت تبصق نحلتها.

تقول الرسالة:

أنت تفقد ولديك.

ثلاث سنوات مرت وأنت ما زلت تحاول فقدان كل ما لديك، ألم يكفِك ما فقدت؟

ثلاث سنوات مرت ولم أجد في نفسي رغبة ولو ليوم واحد في الكتابة إليك، ليس هذا النوع من الكتابة المهزومة المترجية، المعاتبة، التي كنت أكتبها إليك عندما كنت بكامل حماقتي. أقصد النوع الآخر من الكتابة التقريرية التي يمارسها المنفصلون ليُعلِموا بعضهم البعض بتطورات الأمور مع الأولاد. لم أجد أن لك وجودًا عندي يستحق هذه الكتابة. حتى عندما أصيب عمر بالجديري، حتى عندما تفاقمت أزمة يوسف مع تدريب السباحة، حتى عندما لم يكن لدينا مكان مريح للمعيشة، حتى عندما لم أملك مالًا يكفي إطعامهما، وحتى عندما مرضت وسافرت وتغيبت عنهما. لم أبلغك لأنني لم أرِدك أن تكون ولو جزءًا على هامش حياتي الحالية.

أنت لا تعرف أنه في أغلب المرات التي اتصل بك فيها ولداك أو أرسلا لك رسالة اطمئنان، كنت أنا من يمسك بهواتفهما النقالة وأطلبك، أو أرسل إليك بلغة «الفرانكو»، باقتضاب طفولي، رسالة اطمئنان. ولداك رجلان صغيران، لا يهتمان كثيرًا بالعلاقات العائلية والتواصل، على الرغم من تشجيعي وإلحاحي. كان يجب أن أبذل هذا الجهد معهما لأحافظ على علاقتهما بك، لأجلهما قبل كل شيء، لأجل أن أقطع فترات غيابك عنهما، حتى لا يقولا هجرنا أبونا، نسينا، لا يكترث بأمرنا. حتى لا يكتشفا حقيقة أنك لا تتحمل مسؤوليتهما إلا وفق هواك. وحتى لا يستاءا من عدم وجودك الحقيقي في حياتهما، وتخليك عن توفير حياة كريمة لهما إلا بشروطك. تركت هذه الأمور ـ البسيطة ـ لي. أنا، أنا التي هجرتك من دون أن أستعيد حتى ثيابي، أنا التي تحملت كل الأمور السابقة

على الانفصال والمحيطة به وحدي، أنا التي لم تكن تملك من المال شيئًا بسبب حياتها معك.

لا أريد أن ألعب دور الجلاد هنا، لأنك لم تكن قَطُّ الضحية. أنت أب عطوف ـ في كثير من الأحيان ـ أثق بذلك. لكن يا سيادة الأب: هلَّا توقفت عن نعتي بالعاهرة أمام الولدين؟ هلَّا توقفت عن التلفظ بكل الكلمات المشتقة من العهر وإلصاقها بي أمام ابنيك؟ أنت تفعلها منذ سنوات. لعلك لا تعرف أن أول مرة سألني فيها الولدان عن معنى الكلمة، وعرفت أنك تسميني بها أمامهما، كان هو اليوم الذي اتصلت فيه بالمحامي لأؤكد رغبتي في رفع قضية الطلاق، بعد الكثير من التردد والمماطلة.

تمضي السنون وتتلاشى كل آثارك من حياتي، وتستمر أنت على نفس طقوس كرهك لي ولنفسك وللعالم. أما الكلمة التي خبأت معناها عن ابنيك حتى لا يعرفا الصورة التي تريدهما أن يرياني بها؛ عرفا معناها من زملائهما، وواجهاني بالمعنى، ولم أنكر. لم أستطِع الدفاع عنك هذه المرة. هل تعرف شعور صبي على أعتاب المراهقة عندما يعرف أن أباه يرى أمه ساقطة، تتعرى وتنام مع الرجال لأجل المتعة والمال (كما قال زملاؤه له)، وينعتها بالعهر أمامه كل مرة؟

إنهما يكرهان بذاءتك تجاهي. بل إنهما ـ إذا استمررت في ذلك ـ في طريقهما إلى كرهك أنت وهذا ما أخشاه. في يوم قديم صفعتني على وجهي لأني قلت: «لو أنني فاشلة فأمك أيضًا فاشلة»، واليوم ماذا تنتظر من شابين صغيرين عندما تقول لهما ما تقول عني؟ إن شعورهما بي لا يقل عن شعورك بأمك، بل إنه يزيد، لأنهما يرياني كل يوم وأنا أبذل الجهد والمال والعمر لأجلهما، من دون مساعدة من أحد، من دون أن تترك لي أنت شيئًا. ولا تستطيع حتى في أحلامك أن تشوه صورتي عندهما. ما تفعله أنك تشوه صورتك كرجل وليس فقط كأب. تنشئ بينكم عداوة خفية لا تشعر بها، لكنها تكبر، ويومًا ما ستأكلك، وستندم هذه المرة، فتلك خسارة أكبر، لأنك ستفقد حبًّا حقيقيًّا لا تعويض عنه.

لعلك لا تعرف ما حل بي خلال هذه السنوات، كنت حريصة على ألا تصلك أخباري، كنت سعيدة بتشفيك فيَّ وأنت تظنني أغرق وأضيع، بينما كنت أنال كل ما لم يسبق لي أن حصدته من نجاح وتحقق. في البداية كنت أشعر بالخذلان الكبير، خذلانك لي وخذلاني لك، وعدك بالاحتواء ووعدي بالبقاء الأبدي.

كنت أحلم بك كثيرًا، في الأحلام كنت تعاملني بلطف ومحبة، وكنت أنا دائمًا في حالة استنكار أسأل نفسي: «لماذا عدت؟ هل صالحني؟ هل تغير؟». كنت أتبع سلوكياتك، أقلدك في عصبيتك، وأسلوبك في الاستهزاء، وطريقتك في الشراء، وتعاملك العنيف مع البسطاء، وجفائك مع الناس. حتى توقفت عن الظهور في أحلامي نهائيًّا. وتوقفت أنا كذلك عن التأثر بك، وعن افتقادك كشيء ظل في حياتي خمسة عشر عامًا، ثم اختفى.

وأنت لم تشعر بشيء تجاهي. نفد الحب، وحتى الشعور بالتعاطف والقُرب لم تحسه تجاهي وأنت تراني أنهار قبل الرحيل، ولم يشفع لي عندك بعده. ما أردت أن تعرفه الآن بعد أن انتهت ثورتي بسنوات، هو ما حل بي قبل انفصالنا. أنا لست مدينة لك بشرح دموعي وكلماتي، وكتاباتي إليك قامت بهذه المهمة. لكن ربما، بعد مرور سنوات، قد تفهم أشياء لم تفهمها في حينها. وربما يخفف هذا الفهم من الكراهية في داخلك. ربما يساعدك في الحفاظ على ولديك. يجعلك تتوقف عن الإساءة لنفسك وأنت تظن أنك تسيء إليَّ.

مع هذه الرسالة ملف، دوَّنت فيه كل ما مررت به في تلك الفترة. اقرأه أو لا تقرأه، لكن رجاء حافظ على ابنيك، يكفي ما عانياه بسببنا.

لا أستطيع تحديد المشاعر التي داهمتني في أثناء قراءة الرسالة؛ ألم إنساني شفيف، وألم أبوي حاد لم أجربه من قبل، بعض من الحزن والقلق على الولدين، زاد من رغبتي في معرفة المزيد. مع الرسالة ملف اسمه «الحجرات»، حمَّله الجهاز تلقائيًّا بمجرد أن وقفت على الاسم. وتلقائيًّا بدأت في قراءته.

الحجـرات

مدخل البيت

الباب

كنت في حالة فزع، كالفارِّين من الحروب. كان عليَّ أن أختار من بين سنوات عمري، من بين أشيائي الشخصية التي جمعتها على مدى السنين، ماذا سآخذ وماذا سأترك؟ إن كل ما سآخذه لا يعنيني فقده، وكل ما سأتركه سيبقى فيَّ يُمزقني. كان عليَّ أن أودع أعوام شبابي الأول، وأمومتي الأولى: شابة صغيرة تجري وتتقافز بين البهو والممر، أُم صغيرة تهدهد الرضيع في أركان الغُرف، والآن تغادرها وقد تمزقت شرايين الصبر والحب.

ما حدث لي يشبه شخصًا يمسك بأكتافك، يهزك ويصرخ فيك: «أفق!». رعدة هزت كياني، كان على روحي أن تشتد وتقوى، أن تسكن لأيام، لشهور، حتى تدرك على أي أرض تقف، كان عليَّ أن أتخذ قرارات جادة حاسمة. الجد والحسم، من المصطلحات التي لم تكن في قاموسي قَطُّ. لملمت كتبًا تفوق أغراضي، واستغنيت عن المتبقي من كل شيء، كنت أشعر بأنني في حالة غرق، ألقي بمتعلقاتي الغالية، لأرتفع في الماء وأنجو.

مزهرية المدخل

في المطبخ مرة أخرى، أنا وأمي، بعد خمسة عشر عامًا، بيننا المشاعر نفسها: الحنق المكتوم، والمحبة الغاضبة. مرة أخرى تدندن كعادتها لحنًا قديمًا بصوت هزيل مُنغم:

يا تمر حنة يا تمر حنة

خِليتي بينا وبعدتي عنا

أعرف أنها تقصدني، دائمًا تغني أغنية تشبه ما تشعر به، تقول بها ما يصعب عليها قوله مباشرة. كثيرًا كنت لا أعرف لمن تغني، أو كيف تعرف أغاني لم أرَها تسمعها قَطّ، حتى أدركت بطول عشرتنا أنها تلتقط الأغاني من مخزون قديم في الذاكرة.

الورد كله كسا الجناين

واشمعنى إنتِ اللي شاردة منا

تستمر في الدندنة، بينما أشغل نفسي بتقطيع حبات الطماطم للسلطة، مهمتي القديمة. سؤالها الدائم يؤرقني: «لماذا لا تشبهيننا؟ لماذا تبدين كالحبة السوداء في كومة سمسم؟». على الرغم من أنني هنا، أقف على الأرض نفسها، وأتنفس الهواء نفسه، وأشارك في الطعام والكلام، فإنني بينهم غريبة، كزهرة عصفور الجنة بين الزهور في المزهرية.

كنَّا صغارًا نلعب أنا وإخوتي كل الألعاب المنزلية: بنك الحظ، «إستيميشن»، «كلودو»، أو نلعب ألعابًا أخرى من اختراعنا، نقلد فيها أفلام الكارتون ونمزجها بالمسلسلات العربية التي تواظب عليها أمي، فنخلق خليطًا دراميًّا طفوليًّا يشبهنا. كنت أنا من يؤلف الحكاية ويمنحهم الأدوار، لكني ظللت محرومة من التمثيل، لأنني ممثلة فاشلة تضحك في أشد المشاهد تراجيدية.

وأحيانًا كنا نسجل أصواتنا على شرائط الكاسيت على هيئة برامج نقلد فيها ما يعرضه التلفزيون. أقوم عادة بدور المذيعة، أدير الحوار وأؤلف الموضوع، بينما يخترع إخوتي «الإفيهات»، ويقلدون أصوات أفراد العائلة والأصدقاء والمشاهير، في شكل اتصالات خارجية تأتي للبرنامج المزعوم، فتنفجر المذيعة ضحكًا وتفسد كل الشرائط.

لكن في الكثير من الأحيان، كانت روحي تنسحب في هدوء وأنا بينهم، يشعرون بي مجرد جسد بعينين زجاجيتين وقلب شارد، ثم يتبع جسدي فجأة انسحاب روحي، يسألونني: «على فين؟»، فأجاوب وأنا أتخذ جلستي في مكان قصي بالمنزل: «هاكتب قصة».

تقول أمي إنني تأخرت في نطق الكلام، بينما كنت أكتب على كل ورقة بيضاء تصادفني، كان من الغريب أن تسبق كتابتي كلامي، أن أكتب في بيت لا يوجد به من أنواع الكتب سوى العلمية والدينية، كان من الغريب أن تترك طفلة ألعابها لأجل الكتابة.

أنقذتني الكتابة عندما كنت طفلة خجولًا مزدحمة بالخيال، كانت الصور الخيالية توشوشني والكلمات تراودني أن أكتب، أحكي عن كل ما أراه وما لا أراه، وعن أحلام اليقظة المتواصلة، ملأت كراريسي بكتابات ساذجة، كنت كلما كتبت شعرت بشيء من العظمة، من الجمال. ويضيع شعوري هذا حين أنتهي وأحاول أن أستجدي إخوتي لقراءة ما كتبت، فيقابلوني بالسخرية، فكانت أجزائي التي لصقتها ووحَّدَتها الكتابة تبدأ في التفتت من جديد.

أجلس للكتابة في المنزل القديم بعد خمسة عشر عامًا من رحيلي عنه، تزوج الإخوة، وعُدت أنا إلى غرفتي ومعي طفلان. عندما رأتني أمي أكتب اكتسى وجهها بالغضب:

ـ تاني؟!

وعندما عرف إخوتي أنني عدت للكتابة، حدثني أخي عبر انشغاله الكبير:

ـ غيري عاداتك وابدئي من جديد، غيري هواياتك. إذا كان لا بد أن تكتبي، اكتبي للأطفال.

وحدثتني أختي عبر صراخ صغارها:

ـ أنتِ مديرة في عملك، أُم وامرأة في منتصف الثلاثينيات. افعلي ما يفخر به ابناكِ وما يليق بمكانتك.

ولمَّح أبي:

ـ لا تضيعي وقتك، وإن كانت عندك موهبة اكتبي عن التاريخ. كتابة محترمة لا حرمانية فيها.

أفقد تركيزي مع كل كلمة تقال، مع كل همهمة أو صوت بعيد في الشارع، على عكس حالي في بيت الزواج؛ كنت أكتب هناك وطفلاي يلعبان، والتلفزيون يعرض الكارتون باستمرار، لم يكن الشغف وحده الدافع، كان هناك الخوف أيضًا، الخوف من التقصير، من النسيان، من الغضب. الخوف لا يجعل منك جبانًا كما تعتقد، لكنه يشدك لتفعل كل ما تريده بسرعة وغزارة قبل فوات الأوان. الخوف يملأ قلبي بالحزن والعاطفة، فتزداد رغبتي في الكتابة. لكنها الكتابة المتوترة، وليست الكتابة المسترسلة الهادئة، التي تأتي عندما يحيط بي الأمان.

لا أحد يُقدر حاجة من يكتب إلى العزلة، لا أحد يفهم مدى الضجر الذي يشعر به عندما يحيط به البشر، وتتقاذفه الأسئلة والشكاوى والحكايات. يكاد يساق إلى الجنون إن حرمته من عزلته، ربما يُفسر هذا غيابي عن مجالس العائلة، والتجمعات الكبيرة، وغيابي عن المشاركة في مجموعات الواتس آب الخاصة بالمدرسة والعمل والعائلة، هذه الحقيقة قد تجيب على مُدرب ابني عندما سألني:

ـ لماذا لا تجالسين باقي الأمهات؟

العزلة ليست كما يتخيلها الناس، ليست: امرأة تجلس وحيدة على كرسي خشبي في غرفة شبه مظلمة، تجتر أحزانها القديمة وتندب حاضرها على مهل. العزلة تشبه البراح الكبير المزدحم بالأفكار الشفافة، حوارات حقيقية وصادقة لا يمكن أن تحدث في الواقع، أشياء غاية في الأهمية على الرغم من أنها لم تحدث بعد. العزلة لا يختارها أحد، إنما هي من تختار من يصلح لها ويقدرها. ربما تُفقدك التماهي مع الحياة والتعايش مع الناس، لكن من جربها يعرف كيف يصبح أكثر تناغمًا مع الكون، كيف يستطيع أن يزرع طينة النفس فتطرح الهوى، يعرف كيف يهوى كل الأشياء الجميلة، البسيطة، كل ما يدغدغ القلب، وكيف يحلِّق من الواقع إلى الخيال، فيفقد أرضه ببطء. لكل شيء ثمن، وثمن العزلة المسافات، والبُعد، بُعد الأشياء عن اليد، وبعد بعضها عن القلب. كل محاولة من الناس لإخراجي من عزلتي لم يقابلها إلا المكوث أكثر في بيداء العزلة الجميلة.

هكذا لم تفلح أمي ولا أفلح كل من اقترب مني في استدعائي لممارسة الطقوس اليومية معه، كانت هناك دائمًا حلقة مفقودة في سلسلة الوصل بيننا، كان من الممكن إيجاد الحلقة بالمزيد من التفهم، لذلك فإن علاقات المُغرقين في العزلة إما طويلة، ممتدة وحميمية عندما يجد الطرف الآخر هذه الحلقة، وإما قصيرة، مبتورة عندما يقرر الطرف الآخر أن يرد على العزلة

بالتجاهل، ويضن بيده التي تملك مفتاح الخروج. يعاقب المعزول بالمزيد من العزلة، لكنها ـ هذه المرة ـ من النوع التقليدي الذي: يجلس فيه المرء وحيدًا على كرسي خشبي...

كنت أسمعهم قديمًا في جلسات العصاري مع جارتنا، وفي الاتصالات بين أمي وخالتي، يتحاكون عن الفتيات المختلفات هنا وهناك، يتفاخرون بكل فتاة ويميزونها بفعل ما، حتى تتزوج. في عائلتنا النساء مختلفات حتى يتزوجن، يتحولن جميعًا إلى حبات سمسم، إلى أواني ورد. تزداد الأوزان، تضمر الأحلام، الطموح يتحول إلى أكلة جديدة، فسحة مختلفة. ويتحول الحوار إلى التندر على أيام مضت ومشاعر تغيرت، إلى دعوات مستمرة بأن يحفظ الله العيال ويزيد من دخل الرجال. أما أنا فحتى بعد أن تزوجت، بقيتُ حبة سوداء؛ عصفور جنة يحب الصباح.

لكن من يسمح لي بالهروب؟ تواجهني في الصباح كل مخاوف وأسئلة المساء، ابناي يحيطاني في الصباح بطلباتهما، وبحكايات طويلة عن حاضرهما وأحلامهما، في بيت الزواج كان زوجي يسخر من «روقاني» الصباحي، لو استيقظ بعدي كان يمر بي صامتًا كمومياء، يرمق اللابتوب بين يدي بكرهٍ شديد، وعلى الرغم من أنني كنت أترك الجهاز فورًا، على مضض، فإن زوجي كان يظل يراه بين يديَّ وفي عقلي، وعلى الرغم من «صباح الخير يا حبيبي» تستمر نظرة الكره لتبدد كل صباحاتي.

أمسك بخيالي قلمًا وأبدأ في الكتابة، أهرب إلى هذه المنطقة البعيدة في عقلي، حيث لا طلبات، لا مخاوف، لا كراهية. أهرب من صديقاتي ومن أهلي، من كل نواقيس الواقع في حياتي، كل ما يحاول أن يغلف قلبي بقشرة صلبة تمنع عنه الشغف. لذلك لم أكُن قَطُّ، منذ دخلت في متاهة الهروب، صديقة جيدة، تفتن كتاباتي الناس فيحاولون الاقتراب مني، ثم لا يجدون إلا خيالًا، أترك خيالي ليرد عليهم ويتواصل معهم، وأحتفظ لروحي بحق العزلة، مع الكتب والأغاني.

تستعجلني صديقتي في الصباح أمام مقر العمل:

ـ هيا، لماذا تجلسين في السيارة بينما أوشكوا على أن يخصموا من راتبك إن لم تُوقعي حالًا؟

وأقول:

ـ حسنًا، سآتي عندما تنتهي الأغنية.

الكونسول

كنت مع عدة صديقات في سيارة إحداهن، ثم غرقتُ مرة واحدة في لجة خيالي، كتبت رسالة إلى إنسان عذب لا وجود له في الواقع، طعمتها بشغفي، عدلت عدة مرات في ذهني حتى لا أغفل تفاصيل ابتسامته التي تضيق معها عيناه. كنت أبحث عن تفاصيل تليق ببهائه، لمحت من بين شرودي شارعًا قريبًا من البيت، فكرت أن أنزل وأستكمل النص في أثناء تمشية صغيرة، قُلت من دون وعي:

ـ على جنب هنا يا اسطى.

وأفقتُ على عاصفة ضحك.

مثل الوقوع في الغرام، تصيبك الرغبة في الكتابة بالشرود، رحيل الذهن إلى منطقة أخرى غير محددة، كالعاشق الذي يضيع يومه في التفكير المتواصل حول أشياء غير ملموسة، دوائر من الشوق والولع والتخيل، إلحاح مستمر بالانشغال لمجرد الانشغال. يتلاشى التركيز مثل حطب يشعل الروح بكل الأشياء الفاتنة التي حدثت ولم تحدث.

يسألني أهلي والقلق في عيونهم: «لماذا تكتبين؟»، تسألني صديقاتي والإعجاب في عيونهن «لماذا تكتبين؟»، يتخيل أهلي الكاتب شخصًا منفلتًا، له شلة أُنس، وله أفكار إلحادية ضد الدين والقيم؛ يسهر، يُدخن ويسكر. وتتخيل صديقاتي الكاتب شخصًا محبوبًا، مشهورًا، مُحاطًا بالأضواء والمعجبين كنجوم السينما. لا أحد يفهم لماذا أكتب حقًّا.

الغريب، أن كل الكلام الذي يدور في رأسي كإجابات نموذجية عن سؤال «لماذا تكتبين؟»، لا يسعفني عندما يسألني ابني بضيق والتعجب في عينيه: «لماذا أنت كاتبة؟ لماذا تكتبين أصلًا؟»، كيف أشرح له ما قرأته عن «بورخيس» عندما كان يُسأل: «ما هي فائدة الأدب؟»، فينزعج ويود أن يجاوب بأنه «لا أحد يسأل عن فائدة تغريد الكناري، أو منظر غروب شمس جميل». إذا استطاع الفن أن يجعل العالم أقل قبحًا وحزنًا، أليس من السخف أن نبحث له عن مبرر منطقي!

كنت أود أن أقول لابني عن هذا الإغواء الجميل في أن تكتب على هواك من دون قيود أو حدود، تكتب كتتمة لأحلامك، عن كل ما لا يمكن أن يحدث في حياتك الواقعية، أن تكتب يعني أن تجد الحب وقتما تشاء، تعيش حياتك مع كل

نصٍّ جديد، تصوغ طفولتك بشكلٍ مختلف، تكتب ماضيك وتمحو أخطاءك، وتعود بالزمن، أن تكتب يعني أن تصير في الحكاية أنت ليلى والجدة والذئب.

في لحظة حميمية في وعي الإنسان يكتشف أنه ينتمي للكتابة، بعد أن يمر على كل مراحل التعبير: الشخبطة، التلوين، الكتابات الساذجة، الرسائل، الخطابات المثالية، مرورًا بالممارسات غير الناضجة، ومن ثم الكتابات التي يضع فيها من روحه ليعبر تمامًا عن فكرته. وقد بلغت هذه اللحظة التي شعرت فيها أنني أنتمي للكتابة في مرات كثيرة، مع كل انتهاء من عمل أدبي، مع كل ندوة أشارك فيها.

واكب هذا الاكتشاف شعور غامض بالسير فوق الأرض بشبرين في لحظات الشغف، رآه كل من حولي، واستنكروه، إذ كيف يكون مصدر شغفك كامرأة شرقية شيئًا آخر غير البيت والزوج والأطفال، كأن هناك رسالة ضمنية تقول: «أنتِ الكونسول، المنضدة المثبتة إلى الحائط التي توضع بها المفاتيح والأغراض الصغيرة المهمة، لماذا تتخلين عن دورك؟». عندما لاحظ زوجي ما طرأ على روحي أخافته لحظة الانفلات من بين يديه، لخص مشاعره عندما قال لي:

ـ أنتِ مثل بالون الهيليوم، إذا تركتكِ طرتِ.

كان يحاول أن يمسك بيدي الوهمية ويستبقيني، لكنه كان يفعلها بنوع من التهديد، لا يعرف أن الخوف عندما يحل مكان الطمأنينة يحرض النفس على المزيد من التمرد، لم يدرك قَطُّ أن داخل قفص الواقع تقبع عصفورة تنشد البراح، إذ ما فائدة الماء والحَب من دون روح حرة، إن الطير يصنع العُش ويرعى البيض والصغار، ومع ذلك يطير. كان منطقه أن الطيور جُبِلت على الطيران، أما أنا فلو حاولت سأعود مكسورة، وهو لا يحب الحمقى أصحاب الأفكار الطفولية.

مرآة المدخل

في حلقة من اثنتي عشرة امرأة، كنت أجلس بكامل تركيزي ـ وهو أمرٌ نادر الحدوث ـ أنظر إلى المتحدثة الشابة، التي تحكي لنا عن تجربتها الخاصة مع الأبواب التي تغلقها الحياة في وجهنا فجأة ودفعة واحدة، عن قصة عملها بالمداواة وعن عدد الجروح التي عانت منها ومرت بها حتى تستحيل من مجروحة إلى مداوية. كنت أحضر دورة تدريبية عن تطوير الذات، وكانت حياتي تسير على قضيب متكسر، ومع ذلك تتناثر منها الأغاني والرغبات، حالمة بتطوير نفسي، والتعرف إليها من خلال مرآة أخرى غير مرآة مدخل البيت المغبشة. كنت كمن تحاول أن تتعلم الرقص في ساحة بيتها المُهدم.

حضرت جلسة التداوي الأولى من دون ترتيب مني. كنت أراقب المدربة بشعرها المهوش وانفعالها الذي تخفيه بصعوبة، تتحرك بخفة بين النساء اللاتي ينظرن إليها كمفتاح النجاة من عذاباتهن المختلفة، تستمع إلى أصغر التعليقات من دون مقاطعة إلا بأسئلة تزيد من حماس السائلة. تحاشيت نظراتها مُظهرة اهتمامي من طرف خفي، حتى بدأت الجلسة.

قالت:

ـ الآن، تنفسن من بطونكن، أريد أن يعلو البطن مع الشهيق وينخفض مع الزفير.

مرت دقائق وأنا أغمض عينَيَّ، تقول: «هيا»، فأسحب نفسًا عميقًا، تقول: «الآن»، فأطلق النفس الذي حبسته، شعرت أنني أتنفس كرضيعة يعلو بطنها وينخفض بينما يبدو وجهها ساكنًا لا يتنفس. سألتنا أن نتخيل موقفًا سعيدًا مر بنا، أعطتنا أمثلة «يوم نجاحك في الثانوية، يوم فرحك، يوم ولادة ابنك، يوم حققت أحد أحلامك». الغريب أنني من بين كل ما مررت به من لحظات سعادة ونجاح وتحقق وحب، لم أتذكر سوى لحظة قديمة وأنا بين أهلي في سيارة أبي البيجو، الخارج حار والداخل رطب رطوبة تكييف السيارة، أغنية لعمرو دياب تسري في الجو، وأنا أجلس على طرف الكنبة خلف أبي، بينما إخوتي يتشاكسون إلى جواري، وأمي تفاوض أبي لشراء بعض الديكورات المنزلية المولعة بها دائمًا.

في تلك اللحظة قبل ربع قرن من الزمن، كنت أشعر بمشاعر يصعب وصفها، لو نظر أحدهم في عينَيَّ لكشف عن أحلام لا نهاية لها، رغبة وإصرار. أدارت

أمي رأسها نحونا فجأة وهي تقول: ـ خليكوا فاكرين اللحظات اللي احنا فيها في حضن بعض، عشان دي أسعد لحظات حياتكم.

دخلت السعادة إلى جلدي في هذه اللحظة وتركت برودة حلوة، وعلى الرغم من كل الخدوش التالية احتفظت في جزء من ذاكرتي باللحظة، جزء لم أدركه إلا في جلسة التداوي.

بعدها فتحنا عيونًا مدمعة، كررنا عدة جمل مُحفزة وأخرى سلبية، سألتني عن أكثر الجمل السلبية التي أحدث بها نفسي، فقُلت: «تستحقين كل الأمور السيئة التي تحدث لك»، كررناها جميعًا ونحن نصدم أطراف كفوفنا بعضها ببعض، ثم كررنا جملًا أخرى ونحن ندق فوق صدورنا ورؤوسنا ومناكبنا: «أنا أستحق كل الأشياء الجميلة»، «أنا أسامح نفسي وأحبها»، «أنا أتقبل كل أخطائي وراضية عنها»، ثم مسحنا وجوهنا بخشوع كأننا ننتهي من صلاة.

بعد أن سألتني عن سر ابتسامتي الكبيرة في أثناء جلسة الاستشفاء، قصصت لها رؤيتي للمشهد السعيد في حياتي، نظرت إليَّ نظرة متفهمة، سألتني عن وجود أهلي معي في هذه الأيام.

قلت:

ـ موجودون. البعض مشغول، البعض يعاني. إنها الحياة.

قالت:

ـ أنتِ أيضًا تعانين.

ـ ربما توحشتُ وجودنا معًا.

ـ توحشتِ الاستقرار، أنتِ لم تشعري بالاستقرار في حياتك منذ استقللت عن أسرتك.

ـ بل أنا متزوجة وأُم وسعيدة.

ـ إنه أسلوب الإنكار الذي نتجاهل به كبرى مشكلاتنا، فلا نعالجها أو حتى نتحدث فيها.

قلت ضاحكة محاولة أن أبدو هادئة:

ـ لا أعاني إلا من رغبتي في النهوض بذاتي.

قالت:

ـ بل هناك فيل في الغرفة، حاولي أن تريه في المرآة.

في المرة الثانية التي حضرت فيها نفس الجلسة مع نفس المدربة، سألتنا هذه المرة أن نتخيل موقفًا حزينًا مررنا به. الحزن في حياتي ليس كبيرًا، هو مجرد قطع كثيرة متناثرة، بعضها يمكن العيش به، وبعضها حاد وجارح مهما امتد به الزمن. وفي قلبي لم تمُت هذه اللحظة؛ اللحظة التي سحبني فيها من مكاني في السرير وبدأ في ضربي.

لم أعُد أذكر متى بدأ الليل في بيتنا يكتسب طعم الموت البطيء، أعد له عشاء خفيفًا أعرف أنه لن يعجبه كعادة كل ما أقدمه له في تلك الأيام. أدخل إلى غرفتنا بمجرد أن ينتهي من تبديل ثيابه، أندس في السرير وأنا أسمع صوت حركته الحانقة في البيت، أتظاهر بالنوم وأنا أسمعه يدعو عليَّ بصوت خفيض يقبض روحي على مهل. في تلك الليلة لم أعد العشاء، تظاهرتُ بالنوم من لحظة سماع مفتاحه في الباب. كنت قد قررت بتمردي الضعيف أن أتوقف عن كوني «خادمة»، لربما يبحث فيَّ عن «إنسانة». لكن ما حدث أنه اندفع تجاهي يبحث عن «كيس ملاكمة»، ليخرج فيه غضبه وشجونه وعذاباته.

اللحظة التي تبدلت نظرتي فيها وأنا تحت يديه، من التحدي للاستجداء.

في لحظات الضرب أخرج من جسدي، أقنع نفسي أنني في حلم، هذه ليست أنا، حتى وأنا أسمع اتهاماته المتكررة لي، بأنني سبب ما أصبحت عليه حياتنا، بأنني لا أكترث به، بأنني آكل وأزداد وزنًا من طعام يحضره هو، وأنام من دون أن أعده له، بأنني زوجة سيئة بل أسوأ امرأة في الوجود. أتحاشى النظر إليه عندما يبدأ، أرسم في عينَيَّ نظرة تحدٍّ واستهزاء، لكنْ على الرغم مني تأتي لحظة تلتقي فيها عيوننا، أعود إلى جسدي، أفيق من الحلم وأجد نفسي أبحث في عينيه عن رجل كنت أحببته، أتمنى أن يتوقف ويضمني ويخبرني أنه كابوس وانتهى.

اللحظة التي فقدت فيها بصري، وصرخت:

ـ مش شايفة!

الظلام، لم يكن جديدًا على عينَيَّ في وجوده. لكن عقلي ترجم أن الظلام هذه المرة حدث من دون إرادته، وأن خللًا ما حدث من جراء الضرب على الرأس، أمر صدر بانعدام الرؤية، الرؤية التي لم أنجح فيها قَطُّ، هذا الرجل لا يجعلني أرى، أم أنه قلبي.

اللحظة التي سمعت ابني يصرخ: ـ سيبها، كفاية.

«ليس أمام الأولاد»، الجملة التي قلتها مرارًا، وسمعها هو «أغلق الباب عندما تقرر الضرب»، وكأن صوت طرقه على جسدي وصوت قلبي المفطور لن يصلا إلى من يسترق السمع بضعف خارج الغرفة، ولن يفتتا قلب الصغيرين. ابني الذي لا ينطق عادة، ويحبس نفسه داخل عالمه الافتراضي، خرج ونطق.

اللحظة التي خرجت فيها من بيتي لآخر مرة.

مع كل سفر قصير أو مشوار طويل كنت أودع بنظرة حالمة كل ركن في البيت، هذه المرة ألقيت على البيت نظرة واحدة من على الباب، كان في أقذر حالاته، لكني رأيته مثل حطام سفينة «تيتانيك» عندما عادت إليها الألوان والحياة في الفيلم. كنت أرسمه في ذهني جميلًا، نظيفًا، جديدًا، حتى تبقى ذكراه الحلوة دائمًا، لو سمعني أهلي أو صديقاتي الآن ربما اتهموني بالجنون: «كيف تحبين بيتًا أُهِنتِ فيه؟»، لا يعرفون أنني أحب فيه عنفوان شبابي وأمومتي، وعشقي.

اللحظة التي كنت أقود فيها السيارة باتجاه بيت أبي وأنا لا أعرف ماذا ينتظرني.

كان الصغيران يسألانني أسئلة كثيرة لم أعرف إجاباتها، لكنني أُم ولذا فيجب أن تكون لديَّ إجابات. كنت أجيب بثقة وبصوت ثابت أخفى بعناية كل الارتعاش داخلي، مثل ديكور الأفلام، مجسم لكل ما هو حقيقي لكن في الخلف لا شيء. خرجت ولم آخذ معي سوى فرش الأسنان، هذا كل شيء.

اللحظة التي سألني فيها الطبيب:

ـ من فعل هذا؟

الألم في رأسي جعلني هذه المرة لا أتجاهل فكرة الطبيب، كنت أسير تجاه أقرب مستشفى وأنا في حالة عدم تصديق، بجواري أبي، أشعر بالحزن يجيش في صدره على الرغم من ظِل وقار باهت على وجهه. في أثناء عمل الأشعة

سمعته يستغفر ويحوقل، الفرق كبير بين تمتمته بالدعاء وتمتمة الرجل الذي أنام إلى جواره كل ليلة. سألني الطبيب عمن تسبب لي في الكدمات والرضوض، وصمتُّ في خجل، أبحث عن الرجل المفترض وجوده دائمًا إلى جواري في العيادات. طلب مني الطبيب أن أتجه إلى مستشفى حكومي لأثبت الإصابة وأحرر محضرًا بعدها. رفضتُ واستنكرتُ. كنت مصرة في داخلي على أننا غير جميع من سعوا إلى الانفصال.

كانت لحظة واحدة طويلة، حزينة. لم يكن الألم سبب الحزن، ولم تكن القسوة، الانعتاق من الحب كان السبب. قلبي الذي تخلى، عقلي الذي خلع رداء المبررات. فك الارتباط هو ما آلمني، كامرأة في ليلة باردة ألقت معطفها في الشارع وأكملت المسير، تألمت لحظة الخلع لكنها بقيت على الرغم من ذلك دافئة وحرة.

فتحتُ عينَيَّ قبل أن ينتهين، نظرتْ إليَّ المدربة بنوع من الاستفهام، ثم سألتني بعد أن انتهى التمرين عن سبب انتهائي المبكر منه. قلت: ـ لحظة طويلة، وكنت أريدها أن تنتهي.

ـ وهل انتهت؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ متى انتهت؟

ـ عندما رأيت الفيل في الغرفة.

حجرات البيت

الصالون

تبدأ الحكايات من الصالون وتنتهي هناك أيضًا

الأوبيسون

كان يجلس في الصالون عندما قدمت إليه العصير لأول مرة، جلسنا متباعدين، راقبت حركة يده البسيطة، صوته الهادئ وعينيه الفرِحتين، كان يتحدث مع الجميع إلا أنا، لم يكن يشبه الشاب الذي عرفته في الشهور السابقة، الآن أراه يتحدث بطريقة رسمية، كأنه موظف جديد يتعرف على فريق العمل، على وجهه ابتسامة لا تفارقه، تفلت منه كل حين ضحكة نقار خشب متوترة، وأنا أجلس في زاوية كنبة الصالون أراقبه، وأبحث عن الشاب الذي قال لي في أول حديث بيننا إنه يود أن يرتبط بي.

في زيارة لاحقة، على كنبة الصالون همس لي: ـ باحبك.

قُلت:

ـ لا ترددها كثيرًا حتى لا تفقد معناها.

قال:

ـ لكن لماذا لا أقول ما أشعر به؟

قُلت كفتاة لم تعرف من الحب إلا شعارات تعلمتها من الأفلام والروايات: ـ لأن الحب أفعال وليس أقوالًا.

قال:

ـ لكن الحب ليس فعلًا فقط. الحب يُحس ويُفعل ويُقال.

صمتُّ لأستوعب كلامه، فاستدرك:

ـ لماذا لا تُحبين أن تسمعي كلمة يتمنى الجميع أن يسمعها؟

كان هذا أول جدال بيننا، الجدال الذي جعلني أغير رؤيتي الأثيرة عن الحب، تغيرت هذه الرؤية فيما بعد كثيرًا، لكن حوارنا يومها في الصالون كان فارقًا، ربما لأنها كانت أول مرة أعتنق فيها أفكار غيري بإرادتي.

لم تكن كلمة «باحبك» تُبهرني، أراها كلمة تُستخدم لغرض، وليست كلمة تقال نتيجة شعور، كنت قاسية بعض الشيء في حكمي على مشاعر غيري، لم

أصدق أحدًا قَطّ، على الرغم من أنني لم أخدع ولم أمر بتجربة مؤلمة، لكن الحذر يصنع حائطًا يمنع المشاعر من الوصول إلى القلب. كل حكايات صديقاتي عن الخداع، بكائهن وألمهن، كل تحذيرات أمي من مكائد الشباب، كل قصص الحب التي شاهدتها في الجامعة تنتهي ليتبعها ارتباط آخر سريع، كل هذه المشاهد صنعت الحائط حول قلبي، كان هو أول من حطم هذا الحائط.

فتحت لي نقاشات الحب أبوابًا كثيرة جذابة، أدخلتني في متاهات من الأفكار التي أدت إلى نفس النتيجة، لكنني لم أملك إلا أن أسير للأمام، وأستمتع بالتيه في غياهب الأسئلة العذبة التي تدور عن الحب.

مشكلة نقاشات الحب في مرحلة الخطوبة أنها كانت تُلهي عقلي عن التفكير، كنت مُحاطة بعالم عذب من الأسئلة والأفكار التي تتمحور حول أنني أُحب بشكل، وحبيبي يُحبني بشكل آخر، وما أجمل هذا الاختلاف الذي يسير بخطوات حثيثة تجاه اكتمال العلاقة، فيندمج الهلالان ليصبحا قمرًا مُنيرًا. لكن عقلي لم ينتبه للعلامات، لم يفكر في مواصفات الحبيب ـ باستثناء طبعًا «عيناه الجميلتان، شفتاه المثيرتان ولمسته الدافئة» ـ لم يفكر فيما إذا كان الطرف الآخر سيناسبه ويمنحه الراحة (راحة الحياة بكل اضطراباتها وليس راحة القُرب فحسب)، والأمان (أمان النفس وثقتها بأن هذا مَن إذا احتاجت إليه وجدته، وإذا لم تحتَج إليه وجدته أيضًا، وليس أمان وجود شخص في حياتي فحسب)، والاكتمال (الاكتمال النفسي والروحي والتوافق الفكري، وليس اكتمال العلاقة الجسدية الذي يعطي شعورًا زائفًا بالراحة والأمان والامتنان).

بعد سنوات من هذا اليوم الذي جمعنا فيه الصالون، كنت أشكو لصديقتي أنني لا أستطيع زيارة والديَّ وقتما أريد، وفي الأعياد والمناسبات أذهب لزيارتهما وحيدة وفي اليوم الثاني فقط. في الصيف لا أستطيع السفر معهما للمصايف أبدًا، وفي أيام سفر زوجي غير مسموح لي بالمبيت معهما. سألتني وقد تبدت لي أنا نفسي هذه الحقيقة: ـ لكن لماذا لم تتفقا على مثل هذه الأشياء قبل الزواج؟

وأجبت الإجابة التي طالما هربت منها:

ـ لأننا كنا مغرمين في الخطوبة، بدت لنا كل هذه الأشياء شؤونًا صغيرة غير مطروحة للنقاش، كما شغلتنا معاناتنا مع أهلينا لتسيير الأمور المادية في الزواج.

بعد زواجنا بأيام وقعت في خلاف كبير معه حين اكتشفت عدم رغبته في الإنجاب، وأنا التي كنت أخطط لإنجاب أربعة أطفال ليملأوا حياتنا بالبهجة، وأن نصبح عائلة كبيرة كما تمنيت دائمًا، سألتني أمي لمَ لم أناقش الأمر معه قبل الزواج؟

قلت لها:

ـ كنا طائرين جميلين نتنقل بين الفُسح، لم نفكر قَطُّ في أننا سنختلف على شيء، كل مشكلاتنا كانت حول كيف سننتهي من تكاليف الزواج بسرعة لنغلق علينا بابًا ونستريح من العالم.

قال: «سأحتويكِ» وقلت: «سأسعدك»، كانت هذه الكلمات تجُبُّ كل مشكلة أو أمر يطرأ على بالنا، إذ كيف لمن يحتويني أن تغضبه زيارة أهلي! وكيف لمن أسعده أن يغضبني بغيابه المستمر! إن لكلمات الحب وقعًا أجمل من الكلمات الجادة التي تجلب الأموال الطائلة، وللقُبل مفعولًا ألذ من ألف اتفاق يدر نجاحات كبيرة، لذلك وقف عقلي مذهولًا في فترة الخطوبة أمام قلبي الذي حكم بقانونه الأخرق، ولذلك أخذتنا متاهات الحب ونسينا أن نتفق على ما يجعلنا نخوض الحياة وفق نظام يحافظ على الحب حتى النهاية.

مضت فترة الخطوبة وفي كل مرة نجلس في الصالون، نتبادل الحب في كلمات حانية وغزل صريح وخفي، نهتم بتفاصيل الوجه والجسد، تفاصيل تقودنا للوله ومحاولات الامتلاك والغيرة، نتبادل الأحاديث المنسابة في كل شيء وعن كل شيء، إلا عن شكل حياتنا القادمة، الشكل الجاد لها.

النجف الكريستال

إن لم تستطِع أن تضيء الآخر فلا تغيره

في الفيلم، قال البطل للبطلة:

ـ زوجتي لمبة نيون تنير حياتي بالكامل ولا أستطيع الاستغناء عنها، أما أنتِ، فأنتِ لمبة سهاري لا تجرح بصري، هي فقط تُنير روحي.

بداخلي قطعة كريستال تنتظر من يلقي عليها الضوء، كنت أبحث في الحياة عمن يمنحني الدفء، والأمان والحب، ولم أدرك أن الشغف في العلاقات لا يأتي إلا من النور الذي يلقيه أحدهم في روحك، فيعكس على الكريستال البوهيمي داخلك كل ألوان السعادة والرغبة. أدركت أخيرًا أن الحب والأمان والدفء قد يضمنون استمرارية العلاقات، لكن من دون الشغف، ومع مرور الوقت، أصبح الكريستال المنطفئ داخلي قطعة زجاج هشة، بليدة، وتحولت روحي ببطء إلى ثريا معتمة.

منذ سن الرابعة عشرة وأنا أبحث عن عمل، سيطرت عليَّ دائمًا فكرة أن يكون لي دخل مادي يخصني، إذ كيف أتحكم في حياتي وأنا لا أملك مواردها، زائد خجلي الدائم من طلب أي شيء وإدراكي المُبكر أنني المسؤولة عن احتياجاتي. كنت حديثة التخرج حين بدأت العمل في اليوم التالي لانتهاء امتحاناتي النهائية. عندما بدأت علاقتنا تتجه إلى طريق الارتباط الرسمي، فاجأني بطلبه أن أترك عملي في القطاع الخاص وأعمل في القطاع العام بدوام محدود، يومها غضبت منه لأول مرة ورفضت طلبه، لكني عُدت ونفذته، ليس لأني رضخت لمحاولات إقناعه، وليس لأني أردت طاعته، لكن للسبب الذي أبطل معظم محاولات عنادي فيما بعد، الخوف من الفقد.

«الطاعة العمياء»، هذا المصطلح العجيب الذي وضعه ضمن متطلباته في زوجة المستقبل، حتى وإن أنكر ذلك وبدا شابًّا متحررًا، واسع الأفق، مثقفًا، بقي هذا المصطلح تحت جلده، يظهر في صورة طلبات أو أوامر أو حتى رجاءات، أحيانًا تأتي الأوامر على هيئة نظرة غاضبة أو مزاج متعكر، أو خصام غير مبرر يعني «لا تفعلي هذا الأمر»، بدأ تفعيل هذا المصطلح عندما دخلت العلاقة حيز الارتباط الفعلي، فبدأ في الطلبات التي ظاهرها «خوفي عليك»، وباطنها «والآن، لنعرف مقدار طاعتك» أو «لنعرف مقدار قيمتي عندك».

صادفت في حياتي العديد من الفتيات اللاتي غيَّرهن الارتباط، منهن من ارتدت الحجاب ومنهن من خلعته، منهن من قاطعت صديقاتها ومنهن من قاطعت مجتمعها بالكامل، منهن من غيرت طريقتها في الكلام والضحك، ومنهن من

غيرت طريقة هندامها، أذكر صديقة كانت أكثر بنات الدفعة أناقة، وعندما خُطبت ارتدت الحجاب فأصبحت أشهر بنات الدفعة، لأنها استغنت عن ثيابها اللافتة، وبدأت بذائقتها المميزة تصنع موضة جديدة من الثياب المحتشمة الأنيقة، ثم فاجأتنا عندما أتت الكلية بعد إنهاء خطبتها بثوب قصير مكشوف وشعر مصبوغ، عملت بعد ذلك كموديل لـ«كتالوجات» ثياب عالمية، كأنها تقول لخطيبها والأيام الماضية والعالم: «طز!».

لا أنسى زميلة العمل التي أتت أيضًا محجبة بعد خطبتها مباشرة، ثم بعدها بعام أتت للعمل من دون حجاب وهي تعلن إنهاء خطبتها، بعد عدة أعوام عندما عدت لأجدد إجازتي وجدت امرأة منقبة تسلم عليَّ بحرارة، عرفت أنها هي بعد أن تزوجت من آخر. سألت نفسي: «لماذا؟! لماذا تبني النساء حيواتهن على آراء وأفكار ومعتقدات من يرتبطن به؟ لماذا يدرن في نفس الإطار حتى لو كان عكس دورة حيواتهن؟ لماذا يصبغن أيامهن بلون من يرتبطن به فتصبح أرواحهن ممسوخة؟ كيف تحترم المرأة نفسها وأفكارها وقراراتها في ظل هذا الانسياق الرهيب للآخر؟ وكيف تظن أن الرجل سيحترمها إذا فعلت ذلك؟».

كنت وأنا غضة صغيرة، لا أعذر، أحب بكل ما فيَّ، وأكره بكل ما فيَّ. روحي الناقدة متقدة، لا أحترم كل من يتغير لأجل الآخر. حتى وقعت في شرك ما انتقدته، كنت أنحني للريح، أغير الطريقة التي أصل بها إلى نفس معتقداتي من دون أن أغير معتقداتي، أغير ردودي الصادمة ووجهي الممتقع من غضب التحكم، من دون أن أغير أفكاري، أحيانًا كنت أقول: «طيب» وداخلي يصرخ «لا»، لكني كنت أعرف أنها «طيب» مؤقتة لحين أحصل على الـ«لا» التي أريد، ثم، مع مرور السنوات بدأت أعطي بعض الأعذار، أقول ربما هن مثلي يخفْنَ الفقد.

لكن بقيت الحقيقة الوحيدة الجلية أمامي، أن من تتغير لأجل رجل لن يبقي عليها، من تتغير لأجل أي شيء حتمًا سيزول، إن لم ينبع التغيير لأجل أسباب لها أصل ومنطق، وتصعد بالنفس لمناطق أفضل، أسباب لا يؤثر فيها وجود إنسان من غيابه، فإنه سيكون تغييرًا لا قيمة له، بل ينتقص من قيمة الإنسان لأنه يجره إلى التظاهر بغير كينونته واكتساب طبقة من الزيف، لا يراها من يتغير على الرغم من ظهورها لكل من حوله.

حاربت حتى لا أتغير، حاولت إقناعه بأن من يقدم الطاعة في سبيل الحب، والتغيير في سبيل الاستمرار، يفقد روحه تدريجيًّا وتظل تترنح داخله الثريا المعتمة. التغيير المرهون بتغير الظروف والعمر والمكان والزمان هو تغيير حتمي، لذلك يقول كل طرف للآخر بعد مرور وقت على الارتباط: «أنت

تغيرت»، وهو أمر طبيعي ينبغي ألا يكون مفاجئًا، حتى نبرة الصوت تتغير من خطيبين إلى زوجين، ومن زوجين إلى والدَين، كذلك فإن الاستجابة التي تأتي نتيجة تفهم واحترام ومناقشات ندية ودية، هي استجابة مقبولة. لكن التغيير الذي يطفئ صاحبه هو تغيير المعتقدات والأفكار من دون سند سوى حوز رضا الآخر، على الرغم من أن هذا الرضا لا يأتي بالاسترضاء، وإنما يأتي بالحب والتفاهم والتقبل، وتلك هي نفس أسباب الطاعة «غير العمياء».

عندما أدركت هذا الجانب الكريستالي من روحي، بدأت في تلمس النور ليبعث فيَّ بريق الحياة وألوانها، كنت أتلمس نوري في الكتابة، أكتب لأضيء روحي، لأخرج من عتمة وجمود الواقع حتى وإن كان مفعمًا بالحب والأمان والدفء، أكتب لأن روحي من دون الخيال بليدة ومكبلة، كتبت عنه لأول مرة عند أول موقف غضب بيننا، عندما قرأ ما كتبته له، قال:

ـ أشعر الآن أنكِ تُحبينني.

لم يكن سبب الشعور التغاضي عن الخلاف، لكن لأنها كانت أول مرة يرى تجسيدًا لصورته في خيال امرأة تحبه، بعدها بأعوام قال:

ـ عرفت يومها أنك عنيدة ومتعِبة ولا تسمعين الكلام.

قُلت:

ـ أنا هي نفسها، الفتاة التي أعجبتك، التي أحببتها وأحبتك قبل سنوات، لماذا تريدني أن أتغير؟ ألا تخاف إن تغيرت أن تتغير مشاعري؟

الشنواه

على سريري جسد كان جسدي في النهار، قبل أن يصبح جسد الليل بكل ما فيه من أرق وقلق. يسألني صغيري المتكوم إلى جواري أن أحكي له قصة، فأحكي له عن الفتاة التي قابلت الرجل الحلم في قاعة الاستقبال في العمل، وكان يغرقها بالورد والكلام والمحبة، ثم فجأة تحول إلى الرجل الواقع، وسقطت الأحلام مثل المطر وضاعت في الطريق. ينام الصغير ويبقى قلبي في صحوه والجسد في أرقه.

عرفت مبكرًا أن أجمل الفصول في روايات الحب الواقعية هي الفصول الأولى، تبدأ ناعمة، جميلة، أرضًا خصبة تنبت أوراقًا نضرة، تتفتح فيها المشاعر كأنها ترى الشمس لأول مرة، يبدأ المُحب رائقًا ناصعًا، في جسده زغب البراءة، ويحسب أيامه بتقويم جديد، يحمل في داخله لوحات للطبيعة والجمال والسحر، لا تدب فيها الروح إلا عندما يحب.

مع البدايات الجميلة يميل معظم البشر لرسم صور لهم لا تشبههم، أو ربما هي صورهم كما يتمنونها، مع ظنهم أن بعض الرتوش لن تفسد الأمور، إنه ليس التجمل الشكلي واللفظي، الذي هو نواة كل القصص الناجحة، وأصل الحب واللهفة والرغبة، الفطرة التي جُبلنا عليها، التي لا تنتهي إلا بانتهاء الحب. وإنما التجمل المزيف، المُدعي للطباع والأخلاق والصفات، والذي يدل على عاطفة هزيلة، غير واثقة، لها أهداف محددة تنتهي بانتهائها.

كنت أعتقد بخطورة هذا النوع المُدعي من البشر، أدعياء الفضيلة والفطنة والرقة، حتى اكتشفت النوع الأخطر على الإطلاق من الأحبة في بدايات قصص الحب. هؤلاء من يُلقون للطرف الآخر بأسوأ ما فيهم على سبيل الدعابة، أو على سبيل الجرأة، كمن يقول: «أنا لا أهتم برأي الناس فيَّ. أنا إنسان صادق مع نفسي، ولا أخشى أخطائي»، مثل من يعترف ببساطة: «نعم، أنا نسوانجي وأضعف أمام النساء ولا أخشى الاعتراف بذلك»، أو من يقول لحبيبته في البداية: «لتعلمي عزيزتي أنني أدخن الحشيش»، أو «بالأمس لم أنَم جيدًا من كثرة شرب الكحول»، أو «أنا شخصية عنيدة وصلبة وكل صديقاتي ينعتنني بالبرود»، أو «أنا مُعقدة وأكره الجنس».

تبدو الجُمل الصادمة في بداية العلاقة ألطف من وقعها الحقيقي، تصبح سلاحًا ذا حدين، الحد الأول «أنت لا تملك أن تغيرني لأنك قبلتني كما أنا من البداية»، والحد الثاني «أنت لا تستطيع لومي لأنك كنت تعرف، أنا لم أفاجئك!». الغريب أن هذا النوع من الاعترافات جذاب باعتباره نوعًا من الصدق لكنه الصدق

الخادع، الذي يجر للوقوع في براثن الجحيم من دون شربة ماء أو طوق نجاة، حيث الطرف الآخر يقف على حافة الجحيم وهو يؤكد أنه «قال كل شيء سابقًا، ولم يخدعك».

لماذا لم أنتبه إلى العلامات؟ إلى أن كل ما يقوله المرء عن نفسه في خضم الحديث هو حقيقته التي يخشى أن تفرق بينه وبين أحبته، كأن يقول: «أنا عصبي»، «أنا وغد»، «أنا مُدللة»، «أنا أغار بقسوة». وعلى الطرف الآخر ألا يستخف بالعلامات، بل عليه أن يصدقها، ويحسب قدرته على تحمل هذه الصفات وكيفية تعامله معها، أو استدراجه لها حتى تتغير بقناعة أو يتعايش معها بقناعة. كنت هذا النوع من النساء التي ترفض أن تجلس في المقاهي بين النراجيل، وكان هذا يغضبه «محاولتي لتغييره». عندما بدأت أتفهم رغبته في أن أشاركه «طقوسه الصغيرة»، كان قد زهد في الخروج معي للمقاهي. الآن، في كل مرة أجلس فيها بمقهى أو أشم النراجيل، أشعر بأبخرة الماضي تخنقني.

حكت لي صديقة عن أول مرة استقبلت فيها الضيوف في صالون منزل زواجها، كانت التحف الثمينة تصطف على الموائد الصغيرة في الأركان، يجلس الضيوف على الأوبيسون النبيتي المنقوش برسومات لروميو وجولييت، بينما هي تتهادى بثياب جديدة وحذاء بكعب عالٍ بين المطبخ والصالون لتقديم المشروبات والحلوى، ولسوء حظها وقلة خبرتها، التوت ساقها فاهتزت الصينية الفضية في يدها، وسقط بعض العصير على السجادة الشنواه. أتى زوجها مُسرعًا، باشًّا، في يده خرقة مُبتلة، وجلس على مرأى من الجمع على الأرض يمسح العصير من السجادة، قالت إنها تمنت يومها أن تضمه أمام الضيوف عشقًا وامتنانًا على الرسالة الضمنية التي قدمها بموقفه.

كان هذا قبل سنوات من طلاقها، وعندما ذهبت مع أقاربها لاسترجاع حاجاتها من منزل الزواج، فإذا بزوجها ـ الذي أخبرها في مرة قديمة بسخرية أنه «مجنون وحقير» ـ يقذف التحف من النافذة، ويقف بحذاء متسخ على السجادة الشنواه وفي يده كوب شاي ينقط منه على السجادة منتشيًا أمامهم بما يفعله.

يحكي أخو صديقة أخرى عن زوجته عندما اشتدت الخلافات بينهما، أنه عاد ذات يوم من عمله فلم يجد قطعة أثاث واحدة بالبيت، أخبره حارس العمارة عن «الونش» الذي حمل كل القطع على سيارات نقل عدة ثم غادر. هكذا ببساطة، كل شيء يستطيع أن يحمله «الونش» عند الفراق، لكنه لا يستطيع أن يحمل دناءة وخسة خداع إنسان لإنسان كان ينام بين ذراعيه.

قد أتفهم مشاعر الحزن والقهر عند النهايات، لكن لا أفهم أبدًا لماذا وكيف يتغير الإنسان في النهاية لآخر لا يشبهه، كيف يأتي بهذا الجديد، أو كيف كان يخبئه؟

حجرة المعيشة

يبدأ الدفء من غرفة المعيشة وينتهي هناك أيضًا

الأريكة

وأنا التي أكره الأشغال اليدوية، أجلس على أريكة وأشتغل الكروشيه، أُمسك بإبرة وصوف ملون وأغزل كوفية. يوم اشتريت الصوف كنت حزينة وغاضبة، دخلت المحل الذي أمر به كل يوم، وقفت أمام الكُرات الملونة كأني دخلت عالمًا جديدًا ناعمًا، خاليًا من الهموم، يشبه أحلامي القديمة، قررت فجأة (مثل كل المرات التي قررت فيها من قبل) أنني يجب أن أسلك دربًا جديدًا من دروب الهروب. لم يشفع لي النوم المُبكر، لم تنقذني القراءة، واستعصت عليَّ الكتابة. كان يجب أن أشغل يديَّ ليرتاح قلبي ويهدأ عقلي، كان يجب أن أصنع شيئًا جميلًا يعوض كل القبح الذي اجتاح حياتي، كان يجب أن أُداوي شتات نفسي بضم الخيوط وغزلها.

مع الخيوط تداخل شَعري، شعري الذي يسقط في حضرة القلق والهموم. كنت أنهض عن حضنه ويعلق شعري على شفتيه ومنابت ذقنه، فيقول: «شعرك يسقط، ستصبحين صلعاء»، وكنت أضحك حتى لا أفسد اللحظة، بعض قسوة الرجال تكمن في هزلهم، في تصورهم الخاطئ أن التخفيف من الدراما يجعل الحياة ألطف، لا يدركون أن الفكاهة تزيد من التوتر الدرامي عند المرأة، خاصة فيما يتعلق بمظهرها وكينونتها.

أجلس على الأريكة لا أدري إن كنت مرتاحة أم لا، عقلي مزدحم لكن قلبي هادئ. جسدي غاضب؛ مشدود بمشد صدر طوال اليوم، لم يعد بإمكاني أن أحرره في البيت كعهدي القديم، ملتزم بثياب منزلية فضفاضة ثقيلة، اشتريتها له عوضًا عن ثيابه الخفيفة، الكاشفة. قدماي على الأرض أو نائمتان إلى جواري، جلستي المهذبة في ركني الأثير. لم يعد بإمكاني أن أجلس بفوضوية وأصوب قدميَّ في وجه العالم كما كانت عادتي. لم أعُد الصبية التي تفتح الثلاجة كل دقيقة لتجد شيئًا تأكله، تجلس على أذرع الأرائك ولا تتوقف عن الحديث والضحك، أصبحت أخرى منكمشة، تخشى الحديث وتقيد جسدها بألف قيد.

في الشهور الأولى من الزواج كانت الأريكة هي مصغَّر كلمة بيت، هي المكان الذي يجمع بين لذة الراحة، والعشق، والطعام، ومشاهدة الأفلام، وتبادل الأحاديث، وسماع الأغاني. حتى بدأت الرومانسية في فقد بريقها، وتعرت الحقيقة بقبحها، حقيقة ما أردته منه ولم أجده، وما أراده مني ولم يجده. بدأنا لُعبة «تغيرت!»، وكانت النتيجة تغير الأماكن، من أقرب مكانين على الأريكة، إلى الطرف والطرف الآخر، ثم لأريكة وأخرى، ثم أحيانًا لغرفة وأخرى. هذا البُعد التدريجي يبدو على السطور مؤلمًا وقاسيًا، بيد أنه في الواقع من

المنطقي والمقبول أن تتغير الأماكن ما بين بُعد وقُرب، لأن شعور الحب لا يتغير بتغير الأماكن ولا يتأثر بالمسافات. كل الأمر أن رقعة الواقع زادت في حياتنا، لم أفهم إلا بعد أن أصبحت بدوري واقعية.

الحب كان موجودًا ومع ذلك حكمنا عليه فقط بما أظهره كل منا للآخر من مشاعر، مررت بالكثير من الطرق قبل أن أدرك أن الرجل يظن أن المرأة متطلبة في مشاعرها، تريد جرعات عالية من الرومانسية، بينما هي تريد شيئًا صغيرًا مستمرًّا من الرومانسية يجدد ثقتها بالحب دائمًا. وأن المرأة تظن أن الرجل يبدأ بنبذ الرومانسية بمجرد أن يمتلكها في بيته، بينما الرجل لم يكن رومانسيًّا من الأساس، كل الحكاية أن مشاعره الظاهرة التي كان يعوض بها رغباته كثَّفها واختصرها في العلاقة الجسدية، والتي لا تعني للمرأة شيئًا من دون خطوات الحنان والغزل والألفة التي تجعل كل تفصيلة في العلاقة مثل الحلم.

بكيت ذات ليلة أمامه، بعد مشاهدة فيلم أمريكي رومانسي، ثم بدأت نوبة جديدة من نوبات «أنت لم تعد كما كنت. لم تعد تحبني»، وكل هذه الأفكار التي تواتي المرأة الحالمة عندما تُحِب. والتي لم أجد أيًّا من الردود التي أتوقعها عليها، بل على العكس، كان صمته الذي بدأ يمارسه بعد الزواج مباشرة يتعاظم يومًا بعد يوم، لكنه قرر يومها أن يُفسر الأمر لأول وآخر مرة، قال إن الفيلم عبارة عن ساعتين مُركزتين من المشاعر، من قوتها تجعلنا نتأثر إلى حد البكاء، أما حياتنا فهي «عُمر بحاله»، المشاعر فيه مُجزأة ومتبعثرة بين العديد من الفواصل والمشكلات، وأننا لو فكرنا في جمع لحظاتنا المؤثرة لفاقت مدة الفيلم بكثير.

ابتسمت باقتناع، لكن لم يجعلني هذا أتوقف عن البكاء مع كل فيلم.

ولم يجعلني أتفهم ليالي الصمت فوق الأريكة وحديثي الذي يذهب في الهواء من دون رد، نظراته التي تقول: «اصمتي»، ساعات انتظار دعوة للحديث، ردوده المقتضبة، انشغاله العجيب بأي شيء عادي حتى لو كان مباراة محلية، أو فيلمًا قديمًا مُعادًا للمرة المائة، لم يجعلني كل ذلك أتغافل عن كتفي الظمأى، عن الأريكة الباردة، عن قرصة جوع المشاعر، عما يفعله التجاهل بقلبي. كنت أنهار بينما هو يسير في الحياة كأن شيئًا لم يكن، كانت هذه الليالي هي ما حرضتني على التذرع بأي شيء للذهاب مبكرًا إلى النوم.

النوم المبكر، كان هو سبب الصدام الدائم في المساءات والسهرة، عندما أجد نفسي تلقائيًّا أتمدد وأنام على الأريكة بعد يوم طويل من العمل خارج وداخل

البيت، تاركة إياه يسهر وحيدًا، ومع ذلك عندما أخبرني أنه يفتقد السهر وحديثنا معًا بدأت في مقاومة النوم بضراوة، وبدأت أبحث عن شيء مشترك نقوم به أو نسهر فيه، وعلى الرغم من أنني لم أجد منه إلا الانتظار لمحاولاتي فقط، استمررت في المحاولة، لكن نظراته المُراقبة لي كانت تضغط على أعصابي وتستحث سخطي فيستعصي عليَّ السهر أكثر، حتى تبدلت بنظراته المترقبة أخرى متوعدة، وأصبحت مُعاقبة على نومي فوق الأريكة بالنوم فوق الفراش وحيدة، من هنا وضع الفراق نقطته الأولى على الطريق.

على الأريكة في أول ليلة اتفقنا، وأعطينا كل الوعود الجميلة العذبة، لكن هذا لم يُفِد عندما لم نتفق آخر ليلة وأنا على الأريكة وحدي هذه المرة. يومها كنت قد استنفدت كل طاقتي، خمسة عشر عامًا من المحاولات والتحمل والصبر، تحول في أثنائها الحب إلى عدة أشكال. في البداية كان مثل الهواء، لا حدود له في الشكل أو الحجم، ثم تحول ليصبح مثل الماء، حجمه ثابت وإن اختلف شكله بشكل وعاء المرحلة، وأخيرًا تحول ليكون مثل الجماد، ثابتًا في حجمه وشكله، حينها أصبح من السهل تكسيره.

كنت قد انتهيت من مرحلة التكسير، ولم يتبقَّ لي من الحب إلا فُتات بحروف حادة تجرح من ينوي الإصلاح، قُلت له على الرغم من قراري باستحالة الحياة بيننا:

ـ ماذا لو تفاهمنا؟

السؤال الذي جعلني أعود مرارًا وتكرارًا للجحيم، «ماذا لو...؟»، سؤال كل الحالمين الحمقى الذين يعرفون استحالة مآربهم، «تفاهمنا»، الأمر الذي إما أن يحدث من البداية، أو لا يحدث أبدًا. وعلى الرغم من كل قصص الزواج المشحون بعدم التفاهم، والتي أراها «تنجح» وتستمر حولي، وعلى الرغم من قدرتي على التأقلم، فإنني هذه المرة كنت أعرف أنني تغيرت، حتى عندما بادرت بنفس السؤال مرة أخرى، لم تكن نيتي منه التفاهم مثل كل مرة، لكني أردت أن أضع به حدًّا لمعاناتي وترددي وانتظاري وأملي أن يكون القرار ثنائيًّا.

لكنه كالعادة أبى أن نتفق حتى على الاختلاف، وجلس على طرف الأريكة المُقابلة يهدد ويتوعد، يعاير بكل لحظة حب وموقف اهتمام، ويحكي عن خطط مستقبلية للانتقام مني. كان يبدو عليه هو الآخر الإنهاك من هذه العلاقة، وكأن كلينا كان ينتظر أن يبادر الطرف الثاني بالرحيل. كان كأي رجل شرقي يظن أنه لا يفل المرأة إلا المرأة، حكى لي عن مواصفات من يريدها بعدي، كنت أجلس أمامه بلا قلب، أستمع في الفراغ لقصة لا تعنيني، وعيي يحاول أن

يحفظ ملامحه وكلماته حتى يصب خرسانة الفراق على أساسٍ سليم، وروحي تردد «خسارة»، بينما هو يظن أنه يقومني، كنت أعرف أنه الحديث الأخير لنا في غرفة المعيشة.

المكتبة

إن لم تشاركني ما أحبه، فاحترمه

كانت الشقة مليئة بالحقائب الصغيرة والكبيرة، لم أتخيل أن حاجاتنا الشخصية اليومية البسيطة ستكون بهذه الضخامة، أسبوع كامل وأنا أنقل سرًّا أشيائي الشخصية لبيت أمي، كل حقيبة تنزل من بيت زواجي كانت تؤلمني كأنها قطعة من الماضي أجتثها من حياتي، لكن الأكثر ألمًا هو الرعب الذي كان يسيطر عليَّ من أن يراني أحد الجيران وأنا أنزل بالحقيبة، فيعرف خطتي بالرجوع ويحبطها بأي طريقة.

في غرفتي مكتبة هزيلة، كانت وأنا صبية تقع في غرفة المعيشة، كانت في نظري مجرد رفوف قليلة تحتوي كتب الدراسة، لم أسمِّها يومًا مكتبة، احتفظت بكتبي فوق رف واحد منها، كانت تقف وحيدة وغريبة، أعادت أمي ترتيب البيت عدة مرات بعد زواج كل أبنائها، حتى انتهت الحال بشبه مكتبة بغرفتي القديمة، كان أول ما فعلته عندما دخلت البيت أن تركتهم ينقلون الأشياء، تخلصت من الأغراض التي شغلت أمي بها المكتبة، بحثت عن كتبي ورصصتها بعناية وترتيب في المكتبة، وقفت على باب الغرفة أنظر إلى مكتبتي الصغيرة في سعادة وراحة لم يفهمها أحد.

أكتب على مهل، لا يهمني الزمن ولا المسؤوليات، ربما لأنني أحب ارتشاف الأشياء الجميلة، فلا أنتهي منها أبدًا، الكتابة هي فسحتي، وقتي الجميل المسروق وأهم وسائل الهروب، هو لم يفهم هذا قَطُّ، كان ينعت الكتابة بالتفاهة وتضييع الوقت، يهينها فكأنه يهينني.

مكتبة بيت الزواج كانت في غرفة المعيشة الواسعة، مكتبة كبيرة وأنيقة، على رأسها يلتف تاج خشبي من زهور اللوتس. كنت في بداية الزواج أخجل من فرض شغفي عليه، فاكتفيت بوضع كتبي على استحياء في خزانة الثياب، كانت تقف وحيدة وغريبة، بين الرفوف الأخرى الممتلئة بالملابس، حتى بدأت أسلك درب الكتابة وبدأت خزانة ثيابي تضيق بكتبي، فبدأت أستحوذ على المكتبة تدريجيًّا، إلى أن اكتمل الاستيطان بشكل شبه تام.

بدأ صبر زوجي ينفد من هذا العالم الغريب، المُغوي، الغامض، الذي وجد زوجته تسير إليه كالمجذوبة. المزيد من الكتب كان يعني له المزيد من الغرق في هذا العالم، المزيد من الخوف والاضطراب الذي يغزو حياتنا، كانت كل خطوة أسيرها في هذا الاتجاه تعني له، من دون أن يُصرح أو يُلمح، أنه اقترب من فقدي، لم تفلح كل محاولاتي للطمأنة، فكرت في أن أشركه في هذا الاهتمام الجميل، لعله يصاب بالعدوى أو يبلغه التفهم، فرُحت أشركه في

أوقات القراءة، أحكي له عن كل كتاب أقرأه، أشوقه بقراءة بعض المقاطع، أحكي له النهايات بشغف مبالغ فيه، ثم انتقيت له عدة كتب، لكنه كان يرفض القراءة ويستهين بها، كرجل شرقي يرفض أي شيء جديد تُعرفه به امرأة، أو تعرفه به زوجته بمعنى أدق، فالغرباء دائمًا في كل ما يفعلون قطع سُكر.

كان عندما يعود ويجد كتابًا بجواري، شيء في عينيه يتغير، ينطفئ، حرارة تذهب، كهرباء تنقطع، فبدأت أخفي الكتاب الذي أقرأه سريعًا قبل عودته، حتى لا يأتي فجأة ويراني أقرأ. ابتسامتي للكتاب تغضبه، الكتب في المكتبة تستفز بصره، أشعر به ينفث غضبًا كلما وقعت عيناه عليها، مع كل شجار بيننا لأي سبب، كان أول ما ينال سخطه الكتب، لو رآها أمامه يطوحها في الهواء وعلى الأرض، يُهدد بالتخلص منها، يذكرها باستخفاف وتحقير أمام ابنَينا، كأنها هي السبب في كل ما نمر به من عدم تفاهم أو اختلاف.

يخاف الرجل من المرأة الواعية خاصة فيما يخص حقوقها ومشاعرها، يخشى لحظات الإدراك والفهم التي ستجعلها هي المسيطر على حياتها من دونه، غروره وذكورته يمنعانه من إدراك أن الوعي يجعل السعي للسعادة أكبر، يجعل النقاش العادي مثمرًا والإنسان أكثر مصداقية مع نفسه ومن هم حوله. حكى زميل لي في العمل أن امرأته، لأنها تقرأ في العلوم الإنسانية، تتعامل معه كسطح الويندوز، تطبق ما تقرأه عليه فتحذف وتضيف وتجرب. هي لا تدرك أن السيطرة عادة لا تستقيم مع كونها واعية، وأن القراءة على عكس ما يظن الناس تُعلم الزهد وليس التحكم.

في أحد المساءات كنت عائدة من ندوة أدبية، تأخرت لسبب ما عن موعد عودتي المتفق عليه، وبخني كعادته بكلمة غضب قصيرة قبل نوبة الصمت الطويل، لكن عندما رأى كتابًا في يدي أطبق عليه، خطفه من يدي وحاول أن يمزقه، ثم ذهب للشرفة وألقاه بكل ما فيه من غضب، شعرت أنه ألقى بي أنا. كل هذا الكره، كل هذا الغضب، كل هذا العنف تجاه شيء يخصني، هو بالأحرى عنف تجاهي.

وقفت على باب الغرفة أنظر إلى المكتبة الصغيرة الممتلئة بكتبي وأشعر بالراحة، ناموا يا صغاري أنتم الآن في أمان، وصاحِبتكم في أمان، لن ينهرها أحد لو رآكم معها، ولن يطالها أو يطالكم غضبه وأذاه، وهذه المكتبة على صغرها وبساطتها اتسعت لكل أشيائي الحبيبة. كانت أمي قد انتهت من رص ثيابنا، استرخينا جميعًا في غرفة المعيشة في حالة من التعب وعدم التصديق، ومحاولة التظاهر بأن كل شيء بخير، كنت خائفة وقلبي ينزف على ابنَي وما ينتظرنا، قال أبي لابنَي حال اجتمعنا:

ـ هنا بيت السلام والسعادة والصوت الواطئ والحب.

فأدركت أنني اتخذت القرار السليم.

الصور

كنت أراها شابة من نار، في رأسها ألف فكرة، تكتب بنوع من التحفظ كتابات رومانسية، تحاول جاهدة أن تجد لنفسها مكانًا بين الكُتاب، تظهر في الندوات وتشارك بعض الكُتاب في الكتابة التفاعلية على مواقع التواصل، صورها دائمًا مُشرقة، بزينة خلابة، ونظرة مثابرة، كان يعجبني شيء من التحدي فيها، ولعدم تفوهها بكلمة عن حياتها الشخصية ظننتها لم تتزوج بعد، حتى ظهرت لي مصادفة على موقع الفيسبوك صورة قديمة لها مع زوج وابن، كانت مفاجأة مذهلة لي، ليس زواجها لكن هذا التغيير الكبير الذي لمسته بين صورها الحالية ككاتبة وصورتها القديمة كأم.

في بداية الزواج لم أكن أهتم بالتصوير، كنت أُحب وكان هذا يكفيني، حتى بدأ الناس يتعرفون على مواقع التواصل، وبدأ الأهل والأصدقاء في الارتباط والزواج ورفع الصور على الفيسبوك ليراها الجميع، بدأت ألحظ الصور، والابتسامات، والنظرات، وبدأت أميز الحقيقة من الزيف من المبالغة من الادعاء من الفطرة، وبدأت أقارن بين صورهم وصورنا، وذكرياتهم القريبة وذكرياتنا، تزامن هذا الاكتشاف المذهل لآلية تجميد الذكريات مع بداية التصادم بآلية الزواج نفسه.

في عيد ميلاد ابني الأول كنت مهزومة على الرغم من التزين والفلاشات والأغاني والفرحة، وجهي الأبيض من أثر الكريمات والبودرة يخفي زرقة عند الذقن. كان قبلها بليلة قد ألقى على وجهي الهاتف فأصابني بكدمة كبيرة، وقفنا في الصور متلاصقين بيننا الصغير وحولنا العائلة، يده تحتضن كتفي وكتفي الأخرى تغوص في صدره، تمنيت لحظتها أن أتهمه بالخداع، أصرخ في الجميع وأغادر المكان، على الرغم من ذلك كانت الصور مبهجة، والألوان زاهية بفرحة عيد الميلاد، والابتسامات ساحرة، كانت مجرد ابتسامة صور؛ تمامًا مثل حياتي معه.

كنت أصنع فيديو لعيد زواجنا العاشر، فهالني أنني لم أجد لنا صورًا معًا، كانت صورنا نادرة وعائلية في مناسبات مختلفة، تألمت لهذه الملاحظة، حاولت بعدها اقتناص أي فرصة لألتقط لنا صورًا معًا، في الحفلات المدرسية، الأعياد، مرات خروجنا القليلة، نظرة عدم الاكتراث في عينيه كانت تفسد الصور، نظرة تقول: «اخلصي»، كذلك ابتسامتي المفتعلة ولمسات الود المتحفظة. كرهت صورنا كلها، لم تكن لديَّ صورة واحدة أسعد بها وأكتفي. بقيت صور الزفاف وشهر العسل هي ذكرياتي الوحيدة السعيدة معه، صور تنطق

بالسعادة والمشاعر التلقائية، صور لم تنشر قَطّ للتباهي، التقطناها لتكون ذكرى فأصبحت مرثية لأيام عشق ولّى.

صور الكاتبة الشابة صور امرأة معتدة بنفسها، رأسها مرفوع وعيناها تبرقان بالطموح، ابتسامة واثقة ونظرة ثابتة، أما صورتها وهي زوجة فكانت أكثر بساطة وصدقًا، من دون تزين، نظرة حانية لابنها، نصفها يختبئ وراء زوجها، صورة تفوح بالعطف، ومع ذلك لا تخلو من انسحاق تام لشخصها كامرأة ومبدعة، إنها الأوقات التي لا تستطيع المرأة أن تخرج فيها عن كونها زوجة وأمًّا. في الصور الأخرى لها ككاتبة كان واضحًا أنها امرأة لها مشروعها الخاص وهُويتها، لكن صورها مع العائلة لم تكن أكثر من صورة امرأة عادية تهتم بكل التفاصيل، ثم تظهر في الصور كجزء من كل.

قد يبدو للناس أنه لا تعارض بين أن تكون أمًّا وكاتبة، بيد أن الانطفاء الواضح الذي تُضفيه المسؤولية على وجه امرأة شغوف يقول عكس ذلك. وكذلك هذا الشعور السري داخل كل امرأة لها طموح عندما تكون بصحبة أسرتها، الشعور بالغربة والخوف، خشية أن تكون الأسرة هي عثرة الوصول الكبرى، التي من أجلها تضحي المرأة بالطيب والنفيس، وإلا عاشت بوخز الضمير طوال عمرها. إنها أصعب معادلة في الوجود.

تفحصت صوري على الفيسبوك، أغلبها صور من ندوات أدبية. تعليقات الغرباء دائمًا كانت محل خلاف وضيق منه. الصور كلها تحمل روح امرأة سعيدة، سعادة حقيقية، حتى بعد أشد أيامي قساوة، عندما تُلتقط لي صورة في ندوة، أكون فيها إنسانة أخرى، واثقة وسعيدة. غريب أن صوري في حفلات التوقيع أبدو فيها مضيئة وساطعة، بعكس صوري مع العائلة وفي العمل. ربما لأنها في نطاق شغفي وولعي بعالم الكتابة، وربما لأن نظرات الاهتمام حولي كانت تمنحني الثبات، وربما لأن الوحدة تصنع الحرية، والحرية تصنع السعادة، لذلك كل صور السياح والمغتربين لا تخلو من سعادة، إنها سعادة الحرية.

كانت آخر مرة خرجنا فيها معًا، في المطعم جلست جوار ابننا الأكبر وجلس جوار الصغير، تبادلنا حوارًا متحفظًا كحالنا في الآونة الأخيرة، كل منا يتجنب قدر المستطاع إشعال الفتيل، راقبته وهو يحاول بصعوبة أن يبتلع انتقاداته، شغلت نفسي بصناعة جو مرح من خلال الطفلَين، التقطت صورًا معهما، وكعادة محاولاتي التي لا تنضب التففت من خلفه لنتصور معًا، وافق ابني على إتمام هذه المهمة والتقاط الصورة لنا، على الرغم من كرهه للتصوير، لكن رغبته في أن يرى والديه طبيعيين، سعيدين ولو لمرة واحدة كانت تستحق.

أحطت كتفيه في البداية، وحاولت استرجاع لهفة قديمة في قلبي، ولما اهتزت الكاميرا في يد ابني وأعاد اللقطة، تظاهرت ضاحكة بأنني سأطبق على عنق زوجي، كان هذا أوقع بالنسبة لي، نظر إليَّ بدهشة وضحك، وكانت الصورة الأخيرة تلقائية وسعيدة مثل الصور الأولى، وعندما حذفت الصور من هاتفي لسبب أجهله، احتفظت بها.

كنت أقصد القسوة، عندما تركت ورائي كل صورنا، الصور التي أعرف كم يُحبها، وكم يسرح بالنظر فيها، صور السبعة أعوام الأولى، صور لا تحمل إلا السعادة على أشكالها، سعادة الحبيب والزوج والأب، فتاة تقف على صخرة وتنادي: «باحبك»، قُبلة على البحر، ضمات عديدة، امرأة مرهقة في سرير الولادة، أطفال يكبرون، يزحفون، يناغون، بسنَّةٍ واحدة يضحكون، أول خطوة، أول «صقفة»، أول يوم حضانة، ثم مدرسة، أول حفلة وأول غناء. لكن الثمانية أعوام التالية بلا صور غلبت السبعة الأولى بكل صورها. الآن كل الذكريات بين يديه، تركتها لتُعذبه، ليعرف أنني استغنيت عن الماضي وتركته له، ليس فقط لأجل كرامتي. لكن لأجل أن أبدأ من جديد من دون ذكريات، من دون صور.

المطبخ

يبدأ الرضا من المطبخ وينتهي هناك أيضًا

رشاشة الملح

تقول أمي:

ـ الخلافات الزوجية هي ملح العلاقات، من دونها لا طعم للحياة.

أقول أنا:

ـ ماذا عن الملح في عينَيَّ، والملح في حلقي، والملح في قلبي؟

لماذا تظن أمي أن الملح يُطعِّم الحياة! الحقيقة أن الحياة هي من ترشني بالملح كل يوم ولست أنا من يرشها، يحرق الملح قلبي الصبي المُتعلق بالأمل، ويذيب شموعه المُتقدة، فلا أنا أنضج ولا أستطيع الاحتفاظ بروحي، والملح في حلقي لا يذوب. إن كل الحقائق العلمية تفقد معناها أمام الحياة وأحاجيها. من قال إن الملح يذوب؟

علاقتي بالمطبخ كانت تتلخص في زيارات خاطفة لمطبخ أمي، أفتح أغطية الحلل وأسأل السؤال اليومي:

ـ عاملة إيه النهارده؟

كانت أمي تمنعني من حمل طلبات البيت أو تقشير البصل أو حتى قلي البيض، تقول: «أخاف تتخدش إيدك»، «أخاف تطلع لك عروق في إيدك». تذكرت هذا بعدها بسنوات قليلة عندما وجدت نفسي ربة منزل، أحمل حقائب بلاستيكية ثقيلة من طلبات البيت وعروق يديَّ كلها نافرة، أقف في المطبخ وحدي مع كل الأشياء التي كنت أزورها من بعيد. تذكرته اليوم أيضًا وأنا أقف في مطبخ أمي الذي لم أنتم له يومًا، تركته لي كمنزل قديم مهجور وأمرتني أن أعمره، صرحت منذ عدة أيام:

ـ اطبخي لأولادك، كفاية دلع.

أمي تُسمي تحملي الكامل لمسؤولية الطفلين «دلع»، أعبائي المادية وتوصيلي لهما ومذاكرتي وقلقي وتعبي، ونومي في نهاية اليوم على سرير ليس سريري في غرفة تحمل كل أغراضي والصغار، «دلع!»، أنا التي لم أذُق الحب إلا لمامًا ولم أذُق الكلام الجميل إلا من الغرباء ولم أحصل على المحبة إلا من العامة، أنا التي تعود في نهاية النهار بالحقائب البلاستيكية الممتلئة وملفات العمل واللابتوب، تحمل المسؤولية في يديها كجمرة ملتهبة لا تملك

إسقاطها، تحملها برضا وصمت، تضعها قبل النوم في قلبها لتظل متقدة. أنا التي تتمنى أن تقول: «أنقذني. أنا وحيدة، وتعبة»، وعلى الرغم من ذلك ـ في داخلها ـ لا تريد لأحد أن يساعدها، حتى تظل غير ممتنة لأحد، ولا غافرة لأحد.

في الإجازات الصيفية كانت أمي تناديني لأقف جوارها، تقول: «اتعلميلك طبخة». لأساعد نفسي يوم يكون لي بيت، لكني كنت شاردة، أتعلل بأي شيء حتى أهرب من هذه الوقفة المُملة، والتي يمكن أن أستغل وقتها وجهدها المهدور في الكتابة، أخذني غرور الشباب، وحسبت أنني إن تزوجت فسيكفي زوجي أنني معه، أننا معًا، من المستحيل أن يقف الطبخ بيننا. سنلعب معًا، نشاهد الأفلام معًا، نستمتع بكل تفاصيل الحياة معًا، ولم أفكر في الأكل، تمامًا مثل فكرة الإنسان عن الحب وولعه وشوقه ومعجزاته، من دون حسابات الزواج.

كان هذا ظني به في الخطوبة حيث لا ذكر للطبخ بيننا، كل ما بيننا فقاعات من القرب والغيرة، لا أدري أين ذهبت كلمات الخطوبة العذبة عن أن «آخر اهتماماتي الطعام»، و«أي حاجة من إيديكِ تبقى حلوة»، فجأة واجهت كلمات، مثل: «عايز محشي» و«نفسي في ملوخية». وجدت نفسي أمام فرخة مذبوحة وعيدان خضراء طويلة ولفائف من ورق العنب. وقفت كالمصعوقة، كل الاتصالات بصاحبات الخبرة، وكل الكتب ووصفات الإنترنت لن تفلح مع بداية متهورة وضخمة في المطبخ.

أصابتني عقدة من المطبخ. عقدة لم تنشأ بسبب التدليل القديم، فرغبتي الكبيرة في صناعة حياة تخصني منحتني المسؤولية والحماس اللازمين لصناعة مطبخ خاص بي. ولكن أسباب نشوء العقدة هي انعدام جملة «تسلم إيدك»، وإحلال العديد من الملاحظات أو علامات الضيق والضجر محلها.

من قال إن الملح يزيد من سرعة الطهي، يُغطي العيوب، ويحفظ الطعام؟ كانت حياتي تتآكل، لم يحفظ لي الملح شيئًا قَطّ.

كنت عندما يسألني ولداي: «عاملة إيه النهارده؟»، أضع يدي فوق قلبي، أجاوب بسرعة كأني منهمكة حتى لا أدع لهما فرصة لإلقاء كلمات الرفض والتذمر. كرهت المطبخ، أصبح الأمر حقيقة لا جدال فيها. حاجز كبير أقيم بيننا نتيجة شعوري أنه أحد أسباب تعاستي، كنت إذا زرت أحدهم أتجنب المطبخ، أمر عليه بسرعة كأنه «أوضة الفيران»، أدخله في بيتي كأني أدخل لجنة امتحان، أو فصلًا دراسيًّا يصيب بالضجر، الغريب هو التواطؤ الذي حدث ضدي

من قطرات الزيت المغلي التي باتت تلسعني كل يوم، سكاكين المطبخ وغطاء علبة السمن الذي راح يجرحني كل مرة بشكل مختلف.

الأمَر من هذا أنه إذا أتت سيرة الطبخ أعلنت ببساطة ويقين أن «أكلي سيئ»، فينظرون إليَّ باستغراب وتساؤلات لا أجد إجابة لها، كيف لامرأة أن تعترف بفشلها في المطبخ! كان هذا هو ملح حياتي، الرشة اليومية التي تصنع مانعًا هائلًا بيني وبين شغف الطهي، وبيني وبين السعادة، أعود من عملي منهكة، أدخل المطبخ بشكل آلي، ومثل قيادة السيارة، فجأة أجد نفسي وصلت، انتهيت من دون شعور أو تفكير، كأن رجلًا آليًّا هو من صنع الطعام، أين «نفَسي في الطبخ» إذن؟

عزيزي «نفَسي في الطبخ» لماذا لا تزورني؟ لماذا تتنكر في دور ربة الإلهام؟ ألا تعرف أني لا أؤمن بها. هناك مشاغب صغير يحدثني طوال اليوم، فيلسوف حالم، يجعل من دموع البصل فكرة، ومن تقطيف الملوخية حكاية، ومن حروق الزيت قضية، إلى آخر كل هذه الإجراءات الرتيبة. ورغبتي في الكتابة تسقط فوق رأسي، بعضها يبقى في ذاكرتي وأكثرها يتبخر سريعًا. لماذا لا يسقط «نفَسي في الطبخ» على رأسي وأنا في المطبخ؟ هل تمنعه الكتابة مثلًا؟ لقد ترجيته كثيرًا، واستحلفته بأغلى ممتلكاتي (الشغف) أن يأتيني في زيارات حثيثة حتى أدرك الفرق بين الطبخ الآلي والطبخ بـ«نفَس». حتى أتعرف على نفَسي في الطبخ، كما تعرفت على نفَسي في الكتابة.

لا أنكر أنني كنت في المطبخ دائمًا مغصوبة، أشعر أنه لا يسعني، لا يضمني، لا يناسبني، وربما لهذا اختار «نفَسي في الطبخ» أن يعاقبني بألا ينتبه إليَّ. الجزء الحالم فيَّ اتكأ كثيرًا على الخيال، وظن أن المطبخ مكان الدفء، والتعرف على الذوق والشغف والرغبة. كنت أسمع وأرى أنه المكان الأهم بالمنزل، مملكة أنثوية خالصة، ومصدر الأنس والمحبة، كنت أرى بعين خيالي حميمية في المطبخ كأن يصنع حبيبان القهوة معًا، أو يعدان الإفطار بطريقتهما الخاصة، أمام مغطس المياه وحواف الأسطح الرخامية تحدث أشياء لا أحتمل تصور عذوبتها، لكن كل أحلامي نُحرت على مقصلة الواقع، وتبددت أهمية المطبخ في نظري، بل زاده النقد والتقريع سوءًا.

وعلى الرغم من غيرتي من شغف الكاتبات بالطهي الذي ظهر في الكتب والروايات، وهذا المزج الرائع بين الحياة والمطبخ، وهو المكان الثري بقطعه، ومكونات خزاناته، والمعادلات الكيميائية والظواهر الفيزيائية والعضوية التي تأخذ مكانها هناك، دونًا عن طاقة المشاعر التي تتفجر فيه، فإنني لسنوات

طويلة كنت معه في حالة تحفز، حتى استخدامي له في الكتابة شحيح، وخيالي تجاهه ناضب.

كان الغريب أن هذه حالي وحدي، إذ إن معظم صديقاتي مهما اشتدت مشكلاتهن الحياتية لم يكن المطبخ قَطُّ إحداها، بالعكس، كان في الكثير من الأحيان سبب تعديل المزاج والارتفاع به للمتعة، أو سبب الصلح بين اثنين حين يقول أحدهما للآخر: «ما تيجي نتعشى؟»، أو «كوب شاي حلو من إيدك»، على سبيل قطع فترات الصمت.

قرأت مقالًا عن علم الطاقة يقول:

ضعي الملح في أركان بيتك، ضعيه في ماء استحمامك ودلِّكي به بشرتك، فهو يمتص كل المشاعر السلبية.

لا أحد يعرف أن عناكب الغضب عندما تغزل أعشاشها في أركان البيت فلن يكون للملح مكان، وماء الإستحمام البارد لا يؤثر فيه ملح الدموع، والبشرة لا تصبح ناعمة إلا عندما يدلِّكها الحنان. المشاعر السلبية من غير الممكن أن تضيع مع حبات الملح، وإلا كان بائعو الملح والأطعمة المُملحة أسعد الناس على الأرض، تبًّا لكل حقائق التنمية البشرية!

بعد عدة ساعات في المطبخ، بعد الحيرة والقلق والبحث، بعد الجهد والمثابرة، بعد رائحة الغاز وحمية البصل وأثر الثوم، بعد طهي طعام لا تُحبه لشخص تُحبه، بعد البكاء المرير على سيراميك المطبخ، بعد محاولة إثبات أن كل شيء بخير، لا شيء يمكن أن يثير شغفك أو خيالك عندما يوصف طعامك في النهاية بأنه ليس أكثر من خراء.

الوصفات

كنا في التسعينيات حيث لا إنترنت ولا مواقع تواصل، وحيث اختفى كتاب أبلة نظيرة من الأسواق تزامنًا مع ارتفاع أسعار كتب الطهي، التي كانت موسوعات أكثر منها كتبًا، فكان المصدر الوحيد لوصفات الطعام هو برامج طبق اليوم. تجلس أمي بكامل تركيزها أمام التلفزيون تتابع منى عامر وهي تعد الأكلات الصحية، وتكتب وراءها في كراسة ضمن العديد من كراريس الطبخ في البيت، بينما أنا أحوم حولها ساخرة، ربما لأنني أعرف أنها ستستبدل بزيت الزيتون السمنة، وبجبن البارميزان الجبن الرومي، وبالخرشوف البطاطس، وبالبروكلي القرنبيط، ثم ستلغي كل مشروع الوصفة الجديدة وتطهو لنا في النهاية كوسة ولحمة وأرزًا.

مع أولى خطواتي في الطبخ قررت أن أتخلى عن كل كراريس الوصفات وأصنع كراستي الخاصة. تخليت عن نزقي وهزلية مشاعري تجاه الطبخ، وبدأت أتابع برامج الطهي وقناة فتافيت. أجلس بكل انتباهي وأكتب الوصفات بدقة، أبحث عن المقادير الحقيقية والأدوات اللازمة، أصنع أشياء مشابهة لما تقدمه البرامج، غير أنها في النهاية كانت تُصنف كنوع من «العك».

لا أدري متى وفي أي يوم وبعد أي حدث تحديدًا بدأ زوجي بالتغيير الجذري من «زهقت من أكل أمي»، إلى «لا أكل يعلو على أكل أمي»، ربما كان السبب هو العاطفة المتأججة تجاه الأهل وخاصة الأم بعد الزواج، وربما كان السبب نفسيًّا، من ناحية أن الإنسان ينتقد ويمل من كل ما في حوزته. لكن لم يكن الأمر كذلك بين أبي وأمي، لم يكن هذا ما ترسب في وعيي منذ الطفولة.

كنت أرى أبي يغازل طعام أمي، كل طبخة يقول إنها طعامه المفضل، كل وصفة جديدة يناقشها فيما ينقصها، كل طعام مصنوع على عجل يستحسنه، كل مرة نصمت فيها يذكرنا: «قولوا لماما تسلم إيدك». في أيام التعب كان يطلب الطعام الجاهز ويقول لنا في أثناء الأكل: «مفيش زي أكل ماما». لذلك كانت الصدمة عنيفة، صدمة أنني وجدت نفسي وحدي، من دون كلمة تشجيع أو حنان، من دون حتى مجاملة من التي ينالها الغرباء. بل ويجب عليَّ أن أشغل نصف يومي بالمطبخ في انتظار نتيجة لا ترضيه أبدًا، وإلا كنت زوجة مقصرة.

في ليالي الصيف، كان أعذب مشهد أذكره من الصبا لأمي في المطبخ وأنا أقف جوارها، تدندن أغاني لا أعرفها وهي تصنع عجينة طرية حادقة، تضربها بقوة لا تناسب كفها الصغيرة، ثم تصنع الشربات من الماء والسكر، نحكي

حكايات صغيرة تفضي الواحدة منها للأخرى، إلى أن تصنع بالملعقة كرات من العجينة تقذف بها في الزيت المغلي، تنتشلها بعد أن تكتسب لونها الذهبي وترمي بها في الشربات، حيث يأتي دوري أنا بتقليب الزلابيا وتصفيتها ومن ثم أكلها وحدي قبل الجميع، ساخنة وشهية مثل أحلامي وقتها.

يأتي أبي وإخوتي من النادي ليجدوا سحر الكرات الذهبية في انتظارهم، كانت هذه هي أهداف المطبخ بالنسبة لي، أن أبث السعادة في نفوسٍ أحبها. كنت أرى أبي يرفض بشدة أن تقيم أمي الولائم بنفسها، أو أن تصنع وصفات صعبة وطويلة، كان يقول لها: «اقعدي معانا أحسن»، الجملة التي أصبح يقولها أخي لزوجته مع كل عزومة: «كفاية مطبخ، اقعدي معانا أحسن»، في صباحات الجمعة يسبق أبي أمي للمطبخ ليعد طبق فول مختلفًا، أو شطائر مختلفة وغريبة عما اعتدنا عليه، ليصنع لنا نهارًا مختلفًا. وكانت أمي مع كل أكلة تضيف شيئًا صغيرًا، تفصيلة من روحها، ليست بالضرورة الأشهى، لكنها بالتأكيد تصنع لها طابعها الخاص، كأنها جملة صغيرة على شريط وهمي يلف الطعام، تقول «صُنع بالحب».

يقول زوجي: «لأنك لا تطبخين الطعام بحب»، وأتعجب، كيف استطعت أن أضع الحب في كل ما حولي، كيف أشعر به يسري فيَّ كالدماء وينقط من أطراف أصابعي، ومع ذلك لا أستطيع أن أمنحه للطعام! هل لأن أحلام اليقظة والخيال المتقد التي تستخسر ضياع الوقت في الطهي قد وقفت حائلًا بيني وبين المطبخ؟ أم لأن هذه هي نتيجة الفرق بين جملة «اقعدي معانا أحسن»، وجملة «قاعدة ليه؟ قومي اعملي أي حاجة في المطبخ».

تقول الجدات: «الطريق إلى قلب الرجل معدته».

كلما سمعت هذه المقولة تخيلت رجلًا يأكل بنهم ويسيل من فمه شبقه بالطعام، ثم يُقبل على امرأته، يُقبلها وبقايا الطعام على فمه. إنه أمر شديد الغرابة أن يربط الناس بين القلب والمعدة، إن أجمل وأقوى وأبقى قصص الحب وأساطيره لم تعرف قَطُّ مكانًا للطعام. وحتى قصص الحب والزواج الطويلة التي نسمع عنها ونراها ونتداولها، لم يكن للطعام دور أساسي فيها، فمن أين أتت هذه المقولة التي تشبه الدخان، رمزًا لوجود حقيقي للنار؟

يقول سيجموند فرويد إن غريزة الجوع تتفوق على غريزة الجنس بعشرين ضعفًا، لذلك أتفهم أهمية متعة الطعام ولذته عند الناس على مختلف توجهاتهم، وأتصور ارتباطه بكل المناسبات والخروجات والفُسح، أتفهم كونه وسيلة لإدخال السرور، وليس الحب. إذ ماذا تفعل وليمة كبيرة لقلب حزين؟

ماذا تقدم الحلوى لإنسان وحيد؟ ماذا تُضيف إلى حياتك البيتزا إذا كنت تشعر بالنقصان والحيرة؟ الطعام قد يقوم بالدعم النفسي، لكنه أبدًا لا يُقيم الحب في القلب. من الظلم أن نربط الحب بالطعام، وإلا كانت كل زيجات الطهاة ناجحة وعظيمة وممتدة.

أفكر أن الوصفة سهلة لكل رجل أراد أن يجمع بين الحُسنيين، لذة الحب ولذة الطعام. ليس عليه إلا أن يحب زوجته ويمنحها حنانه الكبير، ثم يتركها تصنع في المطبخ ما تستطيع، ليس عليه إلا أن يحب زوجته ويمنحها ثقته وتشجيعه، ثم يتركها تصنع في المطبخ ما تستطيع، ليس عليه إلا أن يحب زوجته ويلمِّح لها عن نوعية الطعام الذي يشتهي أن يتذوقه من يدها، ثم يتركها تصنع في المطبخ ما تستطيع، ليس عليه إلا أن يحب زوجته ويمنحها زياراته الودود للمطبخ ورغباته الصادقة في المساعدة، ثم يتركها تصنع في المطبخ ما تستطيع، ليس عليه إلا أن يحب زوجته ولا يقارنها بأمه أو زوجات أصدقائه أو الطباخين في المطاعم والبرامج، ليس عليه إلا أن يحبها، ثم يراقب النتائج بعدها.

السكرية

ترشك الحياة بالملح، ثم يأتي السكر من داخلك

ـ عملت لكم تشيز كيك.

صفراء طرية بالأناناس، ابني الكبير دار حول نفسه، والصغير صرخ في نشوة، وزوجي أكل بصمت.

كان هذا قبل رحيلي بعام، عندما زارني الشغف في المطبخ، وقد زارني كثيرًا من قبل، لكنها أول مرة يدخل مطبخي، ربما أعوام عمري، ربما أبواب قلبي، ربما أشياء لا أعرفها هيأت له أن يزورني ويهمس لي: «أما آن الأوان بعد؟». بعد الكثير من الأفول الذي دفع بي لعدم الاكتراث، نفذ إلى قلبي حب من نوع جديد. كان لا بد لحب الحياة الذي لمس قلبي بعد أعوام من المعاناة والخيارات الخاطئة والتدريب على الكره، أن يلمس كل ما حولي، أن يسعى في رأب الصدع بيني وبين الطهي، أن يحل هذه المعادلة الصعبة بين كل ما هو بري شارد وكل ما هو مُهذب بليد.

في البداية كنت أسمع الأغاني تدور في عقلي، جعلتني أتنقل بين الخزانات والوحدات بخفة كأنني أرقص، خطوات بالكاد تلمس الأرض، سمعت صغيري يقول لجدته:

ـ مامي ترقص باليه في المطبخ.

ثم كانت نقلة فارقة عندما أصبحت أتعامل بيدي، وليس بالمغارف والأدوات التي تحفظ يدَيَّ نظيفتين كما كنت أفعل، أصبحت أمسك خلطة المحشي بيدي وبدفءٍ ألفه، وبعذوبة الموسيقى أرصه في الحلة، أضع مع المقادير ابتسامتي وحبي والموسيقى التي بداخلي.

ثم زرعت في مطبخي زرعتين صغيرتين بزهور وردية جميلة تداعب عينَيَّ مع كل دخول للمطبخ، بل وتشجعني على البقاء فيه، لعب الطفلَين الصغيرة بألوانها الفاقعة نثرتها على الرفوف فزادت من جمال مطبخي أيضًا، شغلت الأغاني التي أحبها، أصبحت أقف في مكان يشبه روحي، الألفة تزيد قدرتك على العطاء، الموسيقى والرقص يحررانك من مخاوفك وعقدك، الجمال الذي يجتاحك يصل إلى كل ما تصنعه يدك، حتى الأشياء حولك تصبح أرق وتنجذب لك في سيمفونية كونية بديعة.

توصلت إلى حقيقة أنه إذا لم تجدي مَن يشجعك على المطبخ، اصنعي أنتِ عالمك بنفسك، لا تنتظري الآراء ولا تخشي النقد، لا تأخذك التوقعات لرومانسية المطابخ والعمل المشترك، تذكري جيدًا أنه مكانك الخاص، وكل ما فيه يجب أن يحمل نكهتك. أصبحت عندما يسألني ابني: «عاملة إيه النهارده؟»، أرد: «عاملة أكل حلو».

رائحة الشياط التي تغزو حياتي كل حين لم تعد ترعبني، أنا هو أنا، بمقدرتي وعطائي وروحي، إذا أحببتني فلك كل ما فيَّ، وإذا لم تحبني فأنت المحروم للأبد. بدأت أحاديث الذات تلعب دورًا محوريًّا في حياتي، وتُغير نظرتي للأشياء، عندما تخلصت من الخوف استطعت أن أقدم نتائج أفضل، عندما اتخذت خطوات نحو معرفة نفسي استطعت أن أرتاح لإمكانياتي، عندما استغنيت أتاني كل ما أردته وأكثر. بعد أن رحلت أدركت سبب الشغف المفاجئ للطبخ في مطبخي، إنها «حلاوة الروح» التي تسبق الفراق.

مضت خمسة عشر عامًا منذ تركت مطبخ أمي، أعود اليوم لأراه من زاوية جديدة، أجلس في بقعة شمس أتأمل حياتي، أتذكر أنني كنت الوحيدة من بين أهلي ومعارفي التي تنهض مغصوبة للمشاركة في تقديم الطعام أو لم السفرة في الولائم، فضلًا عن أنني لا أشارك أبدًا في تنظيف الأواني، حتى بعد أن أصبحت ربة بيت كنت حريصة على الانتهاء من واجباتي في المطبخ بسرعة حتى أبدأ في ممارسة أشياء أجمل، لماذا لا يفهم الناس أن ميول الإنسان ليست بيده؟ وأن طاقته على العطاء تنضب في الأوجه التي لا تناسب شخصه؟ لماذا لا يُقدرون أن الواجبات على أهميتها خانقة، على الأقل لمن هم مثلي؟

في العمل أستعين بسكين لتقطيع التفاح، كانت ضمن سكاكين مطبخي المميزة بصغرها وحدَّتها، نظرت إليها باهتمام وأنا أهمس:

ـ أنتِ فقط ما بقي لي منه!

لا أدري متى تصالحت مع المطبخ، حتى بعد أن تركته، سامحته، بل وتوحشته، حتى آثار الجروح في الأواني أفتقدها، وأذكر أسبابها، تركته، لكنْ بقي داخلي شغف الطبخ الذي توصلت إليه، ليس للأمر علاقة بالمكان، مطبخي المُشمس، الواسع، على الرغم من كل ما أريته من نفور وما أراني من وجع، لم يعد يناسبني الآن، ربما سيناسبني غيره، إلا إنني ممتنة له لأنه دفعني إلى أن أتعلم كيف أضع السكر دائمًا في النهاية.

حجرة النوم

يبدأ العشق من غرفة النوم وينتهي هناك أيضًا

الفراش

كنت في مطلع شبابي أجلس وحدي في غرفة المعيشة أشاهد فيلمًا بالأبيض والأسود، لفتاة تخرج سرًّا لمقابلة حبيبها، تقف معه بخجل ولا خجل، تنبت الكلمات الحيية على شفتيها ويرد البطل على حرارة كلماتها بكلمات أجمل، ونظرات وجلة تجعل القلب يرق ويرفرف. عندما دخلت أمي أغلقت التلفزيون فورًا. قالت:

ـ البنات مش لازم تشوف مشاهد العشق والغرام.

قلت بسذاجة وعناد:

ـ لكن هذا حب، ليس عشقًا أو غرامًا.

العشق، هذه الكلمة التي كنت أسمعها في الأغاني وأنا صبية فأتخيل حالة ماجنة من الحب، لم أستطِع تحديدها، لكنها بالطبع «قلة أدب» كما كنت أسميها، وكل قلة الأدب التي كنت أعرفها هي القُبلات التي أراها في أفلام الأبيض والأسود في لحظات خاطفة قبل أن يُحول أهلي القناة، يحدث أنهم يلهون عن تحويل القناة فأشاهد القُبلة كاملة، عندئذٍ تنظر لي أمي بطريقة مُريبة، كأنني متورطة بنفسي في قضية التقبيل، أدى هذا الهوس بالحرمان من مشاهدة القُبلات أو قصص الحب لصغار السن إلى أنني حُرمت من مشاهدة فيلمَي «الوسادة الخالية» و«المراهقات»، لذلك حرصت على مشاهدتهما عندما كبرت مع كل عرض، بشغف شابة صغيرة.

كنت أدرك من حداثة سني أن الحب لفظ واسع، يشمل الأهل والأصدقاء والأشياء وحتى الأماكن، ومع ذلك كنت أخجل من ذكر الحب مجردًا من دون ربطه بكلمة أخرى، أدركت أيضًا أن العشق هو فرط الحب، وأنه عاطفة مرتبطة برجل، تعرفت على الحب والعشق من الأغاني والروايات، وعلى الرغم من اهتمامي بكل ما يخصهما، وتظاهري بالعكس، فإن مشاهد الغرام في الأفلام لم تكن تثيرني كما ظن أهلي، لم يثِرني أي شيء حسي وأنا أعرف أنه مجرد تمثيل، الحب العفيف كان يجذبني أكثر إلى معرفته.

أدركت حواسي كلما تقدمت في العمر أن العشق هو الحب في عفافه ودعارته، هو الجانب الحميمي منه، الذي يمنحه أشكالًا عدة، ومتعًا لا حصر لها، وطرقًا عديدة للولع، لكن العشق أمر خطير، فهو يجعل الإنسان أكثر التصاقًا بحبيبه، وأشد تعلقًا، وأكثر عرضة للذبول، بعكس الغرام الذي كنت أراه دائمًا

كلمة قديمة عفا عليها الزمن. العشق دائمًا كلمة متجددة بتجدد الزمن والعمر ومنحنيات التفكير، مؤخرًا أصبحت تشير إلى الصوفية لذلك لم تعد لفظة مخجلة.

أجلس على فراشي القديم في بيت أمي وأشعر بأني آمنة، على الرغم من رقة الفراش وصغره، يحمل شيئًا من الحنان. ما زالت لديه القدرة على الطبطبة عليَّ، على الرغم من تذمري الدائم منه. أنام عليه وأنظر إلى السقف الأبيض المتقشر، اشتقت إلى السقف الناصع، إلى رسمة القلب غير المقصودة عليه التي كنت أتخيلها من مكاني القديم شمال السرير كقلب محطم، في أول مرة قلت: «أحب أن أنام على الناحية القريبة من الباب»، كأنني كنت أتحسب للهروب. فراشي كان مكان عذابي وراحتي، مكان البكاء ونوم الهروب والتفكير الطويل، مكان الانتظار والخوف والمحاولات.

تحكي الأديبة والمناضلة لطيفة الزيات في مذكراتها، عن المذيعة التي سألتها عقب طلاقها:

ـ الناس تفهم سبب طلاقك منه، أما غير المفهوم فهو لِمَ تزوجتِه؟

وكانت إجابتها التي أتت من دون تفكير سابق:

ـ الجنس سبب سقوط الإمبراطورية الرومانية.

ما حدث معها هو ما حدث لي، التعلق بأول من تعرفت معه على أنوثتي، هذا الاكتشاف الرهيب. وأول من دق أبواب الجسد، لم أفهم أن هشاشتي النفسية إزاء جسدي وأنوثتي هي ما أدت إلى فقداني التحكم في مسار رغباتي، خاصة في وجود طرف آخر عاشق ويحاول إغوائي، لا سيما أنه طلب بشكل رسمي إقامة علاقة دائمة علنية وحلال معي، في البداية دفعني حثيثًا لطاعته، بدافع الحب، ثم كان التهديد بأنه شاب وله احتياجات يريد أن يلبيها مع حبيبته، أو أنه يخاف أن أكون باردة، غير متجاوبة معه مثل فلانة زوجة علان، ثم أتى الإهمال بعد الإغواء الشديد ليجبرني على الإقدام عليه، أيًّا كانت التنازلات حتى أستعيد شغفه بي. قبل رحيلي بشهور فاجأني بأنه ارتاب فيَّ في أثناء فترة الخطوبة، وأنه فكر أن يتركني لولا أنه كان على يقين من أنه أول رجل في حياتي. ذلك لأنني كنت متجاوبة مع قُبلاته ولمساته المسروقة. سألت نفسي كيف لرجل أن يقنع امرأة بعكس ما يؤمن به، ثم يلومها أنها تبعته؟ كيف يستطيع الرجل أن يحكم على أخلاق امرأة ارتبط بها من سلوكها العاشق معه؟ وكيف يستطيع بكل بساطة أن يُحمِّلها ذنب الهوى في حين أنه هو من جرها إليه؟ هل ذنب

المرأة حقًّا أنها أحبته؟ أم ذنبها أنها انساقت إليه ولم تُدِر العلاقة وفقًا لرغباتها هي؟

في دائرة فضفضة لأحد التجمعات النسائية التي حضرتها، لفتت نظري امرأة أربعينية تحكي عن زوجها الذي يعاملها بفظاظة، حتى يأتي المساء فيتحول إلى آخر يخطب ودها ويريدها في السرير، حكت أنها تكره العلاقة وتتحاشاها وأن هذا يصيبها بتأنيب الضمير لأنها لا تُشبعه، وبحزن لأنها لم تعد ترغب به. وددت أن أشرح لها أنها يجب ألا تلوم نفسها. لأن ضمانة العلاقات الجسدية الجيدة الممتعة هي المشاعر المتقدة باللفتات الحياتية البسيطة النبيلة بين الطرفين، والتي لا تكلف شيئًا أكثر من الصدق والرغبة الحقيقية في إسعاد الآخر، ذلك لأن مراكز الإمتاع والسعادة التي تفرز هرمونات التحفيز والرغبة، توجد في الدماغ. في إشارة إلهية أن عليك أن ترضي عقلي أولًا لتكون المتعة حقيقية، ليتحول الحب إلى عشق. وليس لمجرد لحظات نزقة لا تُسمن ولا تغني من جوع.

قبل الانفصال المادي كان هناك الانفصال المعنوي في منزلنا لعام كامل، البداية كانت هادئة ومقنعة، إذ كيف لاثنين يحملان كل هذا القدر من عدم التفاهم أن يلتقيا في فراش، سريري البارد كان الشاهد الوحيد على الأيام والليالي الصعبة التي مرت عليَّ وأنا جافة، مذبوحة بسكين الجفاء، وحيدة أتوق إلى ضمة. أحاول بقربة الماء الساخنة أن أمنح الفراش بعض الدفء لأنام، في فترة لاحقة من التقبل تعلمت الزهد، فضلت النوم وحيدة بل وسعدت بذلك، غلفت قلبي بطبقة القسوة التي غلف بها قلبه. كل أسباب الرحيل المقنعة تفقد معناها أمام إهانة الهجر، أنا هنا أمامك بكل ما فيَّ وأنت لا تريدني.

كان الفراش دائمًا طريق النهاية كما كان نقطة البداية. يحمل الأسرار الحميمية والمتعة والهمس والصراخ والنزق، يحمل الدموع والأرق والخوف، حتى يصل إلى البرود فتنقطع عنه كل وصلات الأكسجين ويفقد الحياة ببطء.

يوم أن فرشت شقة زواجي، وبمجرد وضع المرتبة الجديدة على الفراش الجديد، قفزت فوقها ومِلت بجذعي كأني أسمع وشوشتها التي تأتيني من عالم بعيد، أترقب إحساسي بقوامها وملمسها، كنت كأني أصافحها وأتعرف عليها كصديقتي الحميمة التي ستشاركني كل القادم من عُمري، جاهدت حتى لا أستسلم لإحساسي بالتوحد وأغمض عينَيَّ، فأنا أعرف أن أمي تقلقها العين المغمضة بنشوة، ومع ذلك قالت بصوت معاتب:

ـ قومي من على السرير ما يصحش!

الشيزلونج

يسأل الأب ابنته في المسلسل: ـ لماذا لم تحملي بطفل من زوجك حتى الآن؟

ترد ابنته:

ـ لأن الطفل لا يأتي إلا بالمحبة.

يقول:

ـ بل لأنك حمارة! بين الرجل والمرأة يأتي الطفل على أهون سبب.

لم أقتنع يومًا بأفكار الرجل الآتية من أرض الواقع، ولا بأن «واحد زائد واحد يساوي اثنين»، إلا إذا كانا اثنين متفاهمين متحابين، ولولا الحب والتفاهم والملاعبة والملاطفة، واللفتات النبيلة الملهمة، سيكون الناتج صفرًا. لم أعترف قَطُّ بأهون سبب منطقي، لكني أعترف بأسباب الهوى اللامنطقية. المضاجعة بالضرورة لا تعني الحمل بطفل، لكن العشق يعني الحمل بالعديد من الأطفال الذين لن ننجبهم أبدًا.

في مناسبات مختلفة تتطرق الصديقات المتزوجات إلى علاقاتهن الخاصة، وكما يتفاخر الرجال بفحولتهم ورغباتهم التي لا تنضب، تتفاخر النساء بعدم إقبالهن ونفورهن المتزامن مع إقبال الطرف الآخر المبالغ فيه. في مجتمع يؤمن بالحسد يجب ألا أصدق شيئًا، لكن اللافت في الأمر هو إنكار الرغبات الشخصية، واعتبار الأمر متعة تخص الرجل، واعتبار المرأة نفسها أداة دورها التجمل أو التمنع.

تقول صديقة:

ـ الجنس يهين كرامتي.

تقول أخرى:

ـ أمر مُمل.

وأخرى:

ـ تؤرقني النظافة الشخصية وأنتظر لحظة النهاية بفارغ الصبر.

وأخرى:

ـ أختلق الحجج حتى أصبح مضطرة تمامًا.

وأخرى:

ـ أريد أن أنام بشدة، فهو لا يأتيني إلا مع نهاية اليوم والطاقة.

وعندما تشعر إحداهن بشبح الملل أو إشكالية التعود، لا تفكر إلا في حلين: قص الشعر أو صبغه، وشراء «بيبي دول» جديد. كل أفكار تجديد العلاقة عندهن شكلية ومظهرية، بينما أفكر أنا أن أطور علاقتي به بتغيير الأنماط والأوقات والأماكن.

في يوم بعيد حاولت أن أجدد في العلاقة، قرأت بعض المقالات والمواضيع المتخصصة، وتعلمت أنماطًا جديدة، فما كان منه عندما أقبلت عليه إلا أن غضب، استنكر معرفتي لطُرق غير التي عرفني بها واعتدناها، وأثناني عن محاولة «التقليد» كما سماه في هذه الأمور، بحجة أن كل شريكين لهما طريقتهما الخاصة. لكني كنت أعرف حقيقة أنه لم يُحب ـ حتى لو أبدى عكس ذلك ـ أن تثقف امرأته نفسها جنسيًّا، ويفضل أن يخضعها تمامًا لثقافته هو.

أذكر هذا الفيلم الذي عزفت فيه البطلة عن زوجها بعد وفاة أبيها لمدة طويلة، مما تسبب في حاجز هائل بينهما، كان يتضور جوعًا لحضنها، بينما ترفض وتعتذر، تخبره أن: «ليس وأنا حزينة!»، حتى اختلَّت ثقته بحبها وبرغبتها فيه، وانزلق إلى علاقة عابرة.

كان زوجي يرى أن العلاقة تتطلب أن نكون سعيدين مرتاحين، وكنت أرى أن الاحتياج للعلاقة الجسدية يتعاظم مع الفقد والحزن بل والانشغال، وأنها ليست وسيلة للمتعة فقط، بقدر ما هي وسيلة للدعم النفسي والعاطفي وللتعويض عن الهزيمة وتطييب الجراح، وأنها أفضل طريقة لسرقة وانتشال السعادة من بين غيوم الواقع الثقيلة، الغيوم التي ملأت حياتنا.

كنت أرى أن أجمل وأقوى العلاقات هي التي تأتي في عز الانشغال والحزن والوحدة، تأتي على حين غرة، من دون ترتيب أو طقوس، تأتي فقط ليقول طرف بها للآخر: ـ أنا هنا، جوارك، في جسدك، وتحت جلدك، أذكرك على الرغم من كل ما حولي، وأراك على الرغم من كل ما حولك، لو كل العالم خراب فأنا هنا لأجلك، أحبك وأريدك هنا وهناك ودائمًا وأبدًا.

كتبت يومًا قصة عن معاناة امرأة لعدم إقبال زوجها عليها وعدم اهتمامه بمتطلباتها. بعد نشر القصة توالت عليَّ الرسائل من نساء رأين أنفسهن في حياة المرأة، «كأنك كتبتني»، كانت هذه تيمة الرسائل والآراء المختلفة التي استقبلتها من كثيرات ممن قرأن القصة، أدركت حينها إجابة سؤالي الدائم: «لماذا أنشر قصصي في حين أنها لا تعني غيري؟ إنها أفكاري ومخاوفي والأشياء التي تؤرقني أنا وليس بالضرورة أن تهم غيري»، نحن نمارس الكتابة لننكأ جراح الناس ونؤنسهم ونشاركهم هواجسهم.

أستريح في جلستي على الشيزلونج، أمد ساقَيَّ وأضع فوقهما اللابتوب، أتخلص من كل أعباء اليوم، أخلع أردية المنطق، وواجبات الأمومة ورتابة العادات، أكتب أوجاعي، وصفاقة الواقع، أكتب حياة موازية تتقاطع مع مشاعر واقعية، والأحاسيس والرغبات التي نميزها جميعًا، لكننا ندعي جهلها، فجأة أحاول تخيل وجه أمي عندما تعرف أنني كتبت عن امرأة على فراش بارد، أحاول تخيل نفسي وأنا أقنعها بقصتي، كطفلة تقنع أمها بضرورة وأهمية طلوع رحلة مدرسية، أكاد أسمعها تقول: «دعيني أقرأها أولًا قبل النشر»، دور الرقابة في حياتي الذي طالما قاومته، ونفسي تصرخ: ـ تبًّا!

خزانة الثياب

أقف أمام خزانة الثياب في غرفتي القديمة، جانب من الرفوف الصغيرة فارغ إلا من بعض الثياب القديمة بمقاس «S»، وجانب به رف واحد يحتوي على بعض زجاجات طلاء الأظافر القديمة الزاهية، وزجاجات عطر فارغة، أحتفظ بها لأشم فيها رائحة الصبا والروائح المتزامنة مع كل فترة من حياتي. أبدأ في رص ثيابي الحالية، يدهشني أن الرفوف لا تكفيها، كيف تضاعفت حاجتي للثياب خلال خمسة عشر عامًا! هل لأن وجهات خروجي كثرت واختلفت، أم لأن شراء الثياب مرتبط بقدر ثقتك بنفسك وبمظهرك، أو بقدر وحدتك ورغبتك في المؤانسة والمداواة بالشراء؟

لم تصطف الثياب بنظام قَطُّ في خزانتي ببيت الزواج، كانت دائمًا مثار ضيق وانتقاد يصل للتقريع: صفوف مائلة، قطع متدلية من الرفوف، تحت الثياب بعض الصور والأوراق أو البطاقات الصغيرة التي تعني لي الكثير، بين الثياب كنت أدس أشيائي الحميمة، زهرة حمراء من القماش والبلاستيك، قلبًا أحمر صغيرًا من الكاوتش المنفوخ، بعض الإكسسوارات المنفلتة من مكانها، عطورًا ضلت طريقها، ومع ذلك لم يضِع أي شيء يخصني قَطُّ، ولا أرهقني البحث عنه، كانت حياتي دائمًا فوضى مُنظمة.

أعجز عن خلق هذه الحالة في خزانتي القديمة، رصصت كل شيء بنظام كامرأة ثلاثينية وأُم، وضعت الثياب الأكثر استخدامًا على الرفوف، ثياب العمل والنادي، لم يعد هناك مكان للخروج في حياتي، لا مكان للندوات والحفلات واللقاءات مع الكُتاب وأصدقاء الكتابة، أنا هنا فقط أُم وامرأة تحاول أن تُصلح كل شيء، ولننحِّ الكتابة جانبًا، ولننحِّ قراراتها المفاجئة وأفكارها الحالمة جانبًا، لأتصرف الآن وفقًا للنصف الثاني من عقلي، النصف الرمادي بالثياب الداكنة والنظرة الجادة والطريقة الرسمية، النصف المسؤول عن الحسم.

أبحث عن صديقاتي القديمات، يقدمن دعمهن تلفونيًّا لتعذر الخروج بوجود أطفال، وزوج متطلب يخاف على زوجته، والكثير من شغل البيت، وكل هذه الأسباب التي حفظتها قبل سنوات، واحدة فقط انفصلت قبل أعوام عرضت أن نتناول الغداء ونذهب للتسوق. في محلات الثياب كانت تنتقي القطع الزاهية العصرية، المختلفة عادة عن ذوقها، حكت لي عن الأعوام الأولى في الزواج عندما كانت تقوم بشراء كل متطلباتها والهدايا للأهل والأصدقاء من مدخراتها، ولأنها لم تعمل لسكنها البعيد في إحدى المدن الجديدة، وانشغالها بالحمل والولادة، ولأنها كانت حريصة على شراء الماركات العالمية والثياب باهظة الثمن لترضي ولع زوجها بالتفاخر بأناقتها أمام الأصدقاء، نفدت نقودها.

قالت إنها فجأة وجدت نفسها مضطرة لأن تطلب منه النقود للشراء، ومن هنا بدأت المشكلات، عندما اكتشفت تجاهله لطلباتها، وتركها من دون نقود، اكتشفت أنه مُكتفٍ بما يجلبه من طلبات البيت، وبالهدايا التي يقدمها لها في المناسبات، عدا ذلك يعد نفسه غير مسؤول عن الصرف على حاجاتها الشخصية، قال لها ذات خلاف:

ـ لماذا لا تعملين؟ ألم تكفِك أعوام من الرفاهية؟ الآن هيا انزلي للعمل، ولا تتحججي بالمسافات، وسائل المواصلات في كل مكان.

وهكذا عادت للعمل وحاربت في جبهات عديدة للحفاظ على بيتها وعملها في آنٍ، بدأ دخلها ينمو وشخصيتها تتغير، كما بدأ اعتماده المادي عليها يزيد، ومسؤولياته الأخرى تجاهها تقل، فلم تعد تتقبل وجوده في حياتها كزبون مقيم في فندق، يدفع حساب راحته فحسب. تركته إثر حوار كان يحدثها فيه عن القوامة.

قبل أن تدفع ثمن الثياب التي انتقتها، أعادتها جميعًا واستبدلت بألوانها ألوانًا أكثر حيادية مثل الأبيض والأسود والبيج، سألتها:

ـ لماذا؟

قالت:

ـ لأني أُم تعيش وحدها وتسكن في شقة إيجار. لا أريد أن أكون لافتة بين جيراني حفاظًا على أولادي وسُمعتي.

عُدت للبيت وفي حلقي غُصة، الناس يقبلون الزوجة ما دامت زوجة، أيًّا كان مظهرها وأيًّا كان سلوكها فهي تلقى الاحترام والتبجيل دائمًا، ولا يقبلون المُطلقة، الأم الوحيدة، أيًّا كان مظهرها وأيًّا كان سلوكها، هي في نظرهم فاشلة، مُدانة إلى أن تثبت عكس ذلك. ضحكَت وهي تحكي عندما سألتها أمهات في أحد اجتماعات المدرسة عن زوجها، فردت عليهن:

ـ لا، أنا «أم عزباء» (سنجل ماذر).

فشهق بعضهن، وسألتها إحداهن على انفراد:

ـ تقصدي إنك خلفتي من غير جواز؟

وهكذا تعلمت صديقتي أن تقول بوضوح:

ـ أنا مطلقة.

أنظر إلى ثيابي في الخزانة، المعاطف الثقيلة كلها هدايا منه، وجودها في حوزتي يؤلمني، يُذكرني بالأيام الطيبة والمناسبات البعيدة، نحن نحتاج في وقت الحسم إلى الذكريات السيئة فقط. كل ثيابي الأخرى اليومية كانت مني، القطع البسيطة الخفيفة تجعل روحي أخف وتشبهني، أما القطع الثقيلة فكانت ذوقه، ما يحب أن يراه عليَّ، ما يحب أن يقدمه لي لتظل ذكراه ثقيلة في نفسي، لا أستطيع التحرر منها بسهولة. في يوم شتوي بامتياز أبيت أن أرتدي أحد معاطفه وارتديت معطفًا خفيفًا من اختياري، قلت لنفسي: «إنه ثمن الخروج».

مرة أخرى كذبت، قلت لأمي إنني على موعد مع صديقة، وكأن كل ما حدث لم يعطِني الجرأة الكافية لأقول إنني سأنزل من البيت لحضور ندوة، وأتحمل التبعات التعيسة التي تلاحق سعادتي باستمرار. إن كان لقاء الأصدقاء الحقيقيين مقبولًا، فلماذا لا يكون لقاء أصدقاء الكتابة مقبولًا أيضًا، لقاءات الأصدقاء العاديين تمنح الروح بعض الترويح، مثل أطفال يلعبون بفقاقيع الصابون، لكن لقاءات أصحاب نفس الهواية تمنح الروح الاتقاد، الفكرة والدافع والمُبرر، والنتيجة. تفتح المراوح عن آخرها لتطير كل المفاهيم والمشاعر، تتغير وتتبدل، وحده الشغف يقف على الأرض راسخًا مُمتنًّا.

كانت الندوة في حي الزمالك لكاتبة مهاجرة، وصلت هناك برفقة الوحدة والقلق، بداخلي هذا الإحساس بهشاشة الروح الذي يصحبني في كل مرة أضطر فيها للكذب. كانت جميلة، وبسيطة، ومرتبكة، عفويتها نفذت إليَّ وبددت وحدتي، كان الجمع كبيرًا، صمت وتركيز واحتفاء، حوارات ملهمة عن الكتابة، جماعات من الأصدقاء، كنتُ الوحيدة التي تقف بلا رفيق.

بعد الندوة غزاني مزيج من المشاعر المتناقضة، تمشيت في الشوارع الغارقة في البرد والانعزال، مع كل خطوة تزداد غُربتي، وتتراكم أسئلتي، بعد هذه الجلسات التي تُغذي فيها روحك تبدأ في مواجهة شخصك، يبدأ صراعك المحموم حول نفسك، يبدو أن إطعام الروح يدفعها للتفكر، للانفلات من الروتين اليومي والبحث عن حقيقة وجودك، عن أحلامك والعوائق التي تنتظرك، عن انتماءاتك المتناقضة التي تعذبك، عن رفض الناس لك هناك، ورفض الناس لك هنا، عن أرقام الهاتف التي تحتاج إلى أن تطلبها الآن ولا

تستطيع، عن أقربهم إليك، أبعدهم عنك، عن احتياجك وضعفك وسخطك، وعنك.

بعد غضب أهلي من تأخري وتذكيرهم الدائم لي بالمفروض والواجب والصح، وقفت في غرفتي القديمة، أمام خزانة الثياب، ودرفة المرآة، أطالع نفسي التي يعرفها الناس وأعرفها، بمعطفي المزموم على خصري، وجهي المحدد بالطرحة وعينَيَّ الواسعتين اللتين تبرقان لتعكسا روحي. بدلت ثيابي لأقف أمام المرآة أطالع نفسي التي لا يعرفها الناس وأعرفها أنا، بثياب البيت الخفيفة، عُنقي الدقيق، شَعري المُهذب، المُتمرد، الحي، الذي أكاد أشعر به وأسمعه وأقيم معه عداوات ومُصالحات. سألت نفسي: «من أنا؟».

حجرات خارج البيت

حجرة الضيوف

قال لي:

ـ البسي أجمل ثيابك، إنها أول زيارة لعائلتي وأريدهم أن يروا اختياري.

مشيت بفستاني الأبيض الضيق أترنح بالكعب العالي وفي يدي صينية كبيرة عليها كاسات مُمتلئة بالعصائر، أقاوم ارتعاشة يدَيَّ، بينما هو وعائلته يثرثرون في البهو، أقدم المشروب لكل فرد، ومع كل سحبة كأس أفقد توازن الصينية في يدي فأقبض عليها أكثر، حتى مع نهاية التقديم شعرت أن يدَيَّ أصبحتا جزءًا من مقابض الصينية، جلست على يد الأريكة أستمع لأحاديثهم محاولة إبداء الاهتمام، أحمل هم الكلمة التي لا بد أن أسمعها بعد قليل «الشاي».

شيء ما كان يؤرقني دائمًا في وجود ضيوف بالبيت أو اضطراري للوجود في بيت غريب كزائرة، أرتدي هذا القناع من السكون والمودة وأوزع ابتسامات لانهائية حتى تؤلمني عضلات وجهي، ربما تكون هذه طبيعتي، لكن عندما تأتي في إطار الإجبار تتحول إلى فعل صعب ومُجهد، والأكثر إجهادًا هو اضطراري للرد على كل الأسئلة، والمراوغة واللباقة، واضطراري لفتح مواضيع للحوار، والخوض في أحاديث طويلة، عامة أو شخصية، لا تعنيني بشيء، ولا تضيف لي شيئًا.

ناهيك عن المجهود المضني في تنظيف البيت وترتيبه وتجهيز طعام ومشروبات للتقديم، كل هذا وأكثر وأنا وحدي المسؤولة، وعليَّ إثبات قدراتي كزوجة والتفوق فيها، كان هذا هو الشق الذي تعرفت عليه بعد الزواج، قبله كنت طفلة كبيرة تتنقل بين الضيوف بخفة، تُسلم عليهم وتتبخر، أما الآن فأنا السيدة الصغيرة التي وجب عليها أن تستعرض مهاراتها المنزلية، وكونها زوجة شاطرة وامرأة مُمتازة في كل المهمات، على الأقل في أثناء ساعات الزيارة.

تحرضني المواضيع الجادة على الهروب، أتمنى لو أختفي داخل إحدى الغرف، وأجلس في زاوية لأقرأ أو أرسل رسائل غرامية لذيذة كما كنت أفعل أيام الخطوبة، يتملكني اشتياق غريب للحميمية عندما أكون في حضور الكثير من الناس، أتمنى لو ينتحي بي حبيبي جانبًا ويعانقني أو على أقل تقدير يكون ملتصقًا بي. ربما يعود هذا الشعور لإحساسي بالغربة وسط الناس، والذي أقاومه عادة بالقراءة أو مطالعة الهاتف، حتى لا يستدرجوني لأحاديث طويلة، دائمًا معي كتاب، هذا يجعلني لا أحتاج إلى الناس.

في الزيارات الأولى كان يشعر بهروبي وأفول حماسي وأنا معهم، فيحاول استعادتي بحكي بعض القصص التي تجمعنا، أو الأحداث التي حدثت لنا، بمجرد أن يكون طرف الخيط في يدي يدور الدم في جسدي من جديد، وأستطيع العثور على مكان مميز بين الحضور. ربما لهذا الحماس والتألق المفاجئ، يظن أغلب من يعرفني أنني اجتماعية، لا أحد يدري أن السبب هو البداية التي يمنحها لي من يفهمني ويحبني.

الزيارات الغريبة تمر عادةً من دون نزاعات، يكون فيها اتفاق ضمني على تصدير صورة جميلة سعيدة حتى لو لم تكن موجودة، إلى أن يصيب العلاقة الكثير من الإحباطات، وقتها ننقض الاتفاقات الضمنية، ويصبح لا ضمانات على حسن المعاملة والتهذيب.

كنا في زيارة لصديقة عمري وأسرتها، ومن دون أي مقدمات ومع أول فرصة التقط فيها دفة الحديث، قال مشيرًا إليَّ:

ـ هي ليست ناجحة، لم تكن قَطُّ، هي دائمًا فاشلة، ليس فقط في البيت لكن في العمل أيضًا.

وكنت حينها في مشكلة بصدد ترقيتي في العمل. لفَّنا صمت رهيب، استنكار وصدمة، لدقيقة. لم أتخيل يومًا أن أجلس للدفاع عن نفسي في بيت غريب أمام غرباء، دافعت عني صديقتي بشيء من اللباقة، وانتهى الموقف لكنه لم ينتهِ من ذاكرتي قَطُّ.

كل المرات التي شكر فيها أزواجٌ زوجاتهم في حضوري، كل المرات التي أشادوا فيها بأي فعل صغير لهن، كل المرات التي لم يقُل كلمة عني أمام الناس، كل المرات التي لمَّح فيها أو قال مباشرة كم أنا مقصرة. كلها تنهش في كرامتي. وأنا، الزوجة التي أثقلتها المسؤوليات، الوحيدة في الطريق، «السوبر وومان» التي تحاول أن تكون ربة بيت وأمًّا وامرأة عاملة وكاتبة في آنٍ، من دون ذرة مساعدة بل وبالعديد من أشواك الغضب وعدم الامتنان وعراقيل المسؤوليات والطلبات، وطعنات الإهمال والإهانات المستمرة.

نحن لم نكن قَطُّ موصولين، القلب الموصول بالقلب يستطيع أن يتكهن بشعوره، يتألم بألمه، يحتوي غضباته، يشاطره فرحه وأحلامه ومخاوفه، يرد عنه، يفكر له، يأخذ بيديه، يثمِّن مشاعره، يعلمه ويتعلم منه، يؤثر فيه ويتأثر به، يشعر بجوعه وعطشه واشتياقه، كشقين لكل شيء، الشق الذكوري والأنثوي، هذا الشعور العظيم من التخاطر يفوق الحب في قوته واستمراريته، كما أن به ملمحًا من الصداقة الحقيقية، لكنه يتفوق عليها بالمشاعر الحميمية المتفجرة،

هذا الوصال لا يعرف المسافات، ولا المشكلات، ولا الفوارق، لأنه لو حدث يجُبُّ كل ما قبله. أما لو لم يحدث فنحن مهما اقتربنا نبقى غريبين في بيت واحد.

المشكلة أننا لم نكن موصولين ولم تكن لدينا مشاعر تكفي العشرة الطيبة، فتحولت العلاقة إلى قنبلة موقوتة، لا نعرف موعد انفجارها لكننا متأكدون أنها موجودة وجاهزة، كنا أحيانًا نتناسى، وأحيانًا نُنكر، وكثيرًا نخاف ونحن في انتظار هذه اللحظة.

كان دائم المقارنة بيني وبين فلانة وعلانة، مما وضعني دائمًا في سباق وهمي لا أرغب أن أخوضه، بل وأدى إلى المزيد من العزلة والاغتراب بيننا. لكن هذا السلوك صادفني كثيرًا طوال حياتي، أن يشير الرجل على امرأة ويخبر زوجته أن الأخرى أفضل منها في كذا، يقارن كل شيء وأدق الأشياء، بداية من شعرها، نبرة صوتها، هندامها، طريقة حديثها، تفكيرها، حتى طريقة تربيتها لأبنائها. وكأنه بهذا يضعها في منافسة دائمة، فيجني إما تغييرها لما يراه أفضل، أو شعورها الدائم بالتقصير الذي يمنحه اليد العليا عليها. نستطيع دائمًا أن نجد النية الطيبة لكل ما نفعل.

كنت جالسة في صالون أهل زوجي أشاهد برنامجًا تلفزيونيًّا أتابعه، عندما أتاني صوته كالرعد ينادي عليَّ، شعرت بغيوم الغضب ثقيلة على قلبي، قال:

ـ ماذا تفعلين؟ ساعدي أمي.

إنه هذا الخلل في شخصيتي الذي لا ينتبه إلى المفروض والموروثات والتقاليد حتى البسيط منها، لذلك أخذت أمي على عاتقها واجب أن تنبهني، تحدثني كل يوم لتذكرني: «كلمي خالك لأنه تعبان»، «لا تنسي السؤال على أم صديقتك المريضة»، «عيدي على زوجة أخيكِ، اليوم عيد ميلادها»، «اتصلي بأهل زوجك وأهلك للتهنئة برمضان»، وقد قالت أيضًا: «يجب أن تساعدي حماتك في المطبخ عند تقديم الطعام»، لكني سهوت وتعلمت الدرس بشكل قاسٍ، جعلني أشعر بثقل المهمة.

فكم قسا عليَّ بعدها في بيت أهله، إنه أسوأ شعور على الإطلاق، أن تكوني في بيت غريب فيتجاهل ويصمت، ويمارس كل أنواع العنف ليظهر سطوته ويؤكد عدم انتمائه إليكِ.

«ماذا لو؟»، السؤال الذي دائمًا أطرحه فلا أجد إجابة مُرضية، يقول أخي: «كلمة لو تفتح عمل الشيطان»، لكنها أحيانًا أيضًا تفتح عمل العقل، «ماذا لو؟»

سؤال نطرحه على أنفسنا لنتفادى الوقوع في الخطأ نفسه مجددًا، ونسأله للناس لنُعرفهم ما كانت ستؤول إليه الأمور لو كانوا تصرفوا بشكل مختلف. مثلًا: ماذا لو طلب زوجي مني أن أساعد أمه بنبرة أكثر هدوءًا ورحمة؟ «لو» أحيانًا تجنبنا معاودة المحاولات في الاتجاهات الخاطئة، «لو» كلمة طيبة، أكررها على نفسي كل يوم.

حجرة الندوات

لماذا عليَّ دائمًا أن أتخذ قرارًا؟

تكتب المُحاضِرة في إحدى الدورات التدريبية الخاصة بالعمل التي حضرتها على السبورة البيضاء «قوة الاختيار». وأضحك في نفسي: أي قوة؟ وأي اختيار؟

لقد جاوبت على العديد من الأسئلة طوال حياتي، وكانت معظم إجاباتي خاطئة، وما زلت أتعثر في أسئلتي وأصر على الإجابات الخاطئة، على الرغم من أن النتائج مكررة وواضحة، فإنه الإصرار الأحمق والاندفاع نحو أي لمبة إنذار حمراء في الطريق. لطالما سألت نفسي: لماذا أترك الطرق الآمنة؟ لماذا أُصر على النزول في الليل والتسكع في شوارع غريبة، على الرغم من الرهبة في قلبي، أو ترك طفلَيَّ الحلوين في البيت لأحضر مناسبات أشعر فيها بالاغتراب والوحدة؟ لماذا لا أحقق أحلامي البسيطة في أن أكون امرأة طيبة، وزوجة حنونًا وأمًّا مُضحية، أمنح عمري للبيت والأولاد، أهتم وأعلم وأسعد بكل يوم جديد في عمرهم، لماذا أنا هكذا؟

في المناسبات التي تخص الكتابة، أتمنى أن يأتي الناس فُرادى، لا أعرف لماذا يؤذيني قليلًا أن يأتوا مع أزواجهم، أقف مع صديقة فأشعر باختلافها وتوترها في وجود زوجها؛ كلام أقل، نظرة كل حين تبحث عنه، أو تراقبه، عقل نصف حاضر، هِمة منقوصة. أقف مع صديق أشعر بتحفظه واختلافه؛ القليل من الخوف مِن أو على زوجته التي عادة تراقب صوتي ونظرتي وكلامي، وتبحث عن خاتم زواج في يدي، يضحك الجميع في وجهي، لكني أشعر بهم يحملون الخوف مني، من شغفي المُطلق، من براح الحلم في حياتي الذي اختلط بالواقع، من كلماتي الحالمة على مواقع التواصل، من طاقة الحزن أو الألم في قلبي التي تُنفر ذوي الطاقات الإيجابية الباحثين عن السلام.

أجلس أمام أخي في المطعم، يحتضن زوجته بالكثير من الود، يطعمها وتطعمه، لم تعد تلفت نظري هذه التصرفات، ربما لأنني عشتها من قبل، وربما لأن قلبي لم يعد يصدق مشاهد الغرام، أسأل نفسي: هل سيسعدني أن أعيش هذا المشهد مرة أخرى مع زوجي؟ على الرغم من أنه توقف عن الجلوس جواري منذ زمن بعيد، فإنه كان يطعمني أحيانًا، ولا يُشعرني هذا بالسعادة، هناك هذا الساتر الثقيل بين قلبينا وعقلينا وحتى روحينا، مهما نادينا بعضنا بحبيبي وحبيبتي، مهما سرنا متجاورين، مهما ظهرنا معًا، مهما شاركني

مشاويري وهمومي، مهما سهرنا وفعلنا مثل أي زوجين متحابين. إذن أنا لا أفتقد مشاهد الغرام، لكن أفتقد هذا الشعور، ورغبتي الحقيقية فيه.

لكن ما زالت مشاهد الغرام الحقيقي تؤثر عليَّ، وتُبكيني، في الأفلام أكثر من الواقع، لا أتأثر بالكلام الجميل الذي يقوله الرجال، أو الذي يكتبه الرجال لزوجاتهم، إنما أشعر نحوهم ببعض الشفقة، ما الذي اضطرك للإعلان عن مشاعرك أو امتنانك؟ هل هو شعورك بأنك جرحتها بشكل ما في الخفاء، أم رغبتك في إيصال رسالة من بين السطور لامرأة في الخلفية، أم لشحذ بعض «اللايكات» من الأغلبية العظمى من الناس الذين يبحثون عن قصص إنسانية مُلهمة، ورجال مخلصين يُقدرون المرأة حتى لو على الورق؟ لكن لماذا لا يكون السبب أنه أراد أن يسعد امرأته بهذا التصرف البسيط؟ لا أدري إن أصبح يسبقني دائمًا سوء النية، أم أنه إحساسي الذي يقيس الصدق بمنتهى الدقة، فيصدر أحكامًا من دون سند ملموس.

أقف بين الناس وحيدة، أختار مكانًا قصيًّا فارغًا لأقف فيه، أطالع هاتفي كل دقيقة لأبحث عن هذا الدفء الذي يشع عليَّ ويغمر قلبي ولو لثوانٍ، أراقب الأزواج الكُتَّاب، أو الكُتَّاب الأزواج. لماذا لا أفكر أن أحضر مع زوجي؟ هذا الافتراض حتى لا يخطر لي. هو لا يحب هذا العالم ويصيبه بالضجر، فيقف متكبرًا، نافرًا، أشعر أن الساتر الهائل بيننا سيظهر للناس، المسافة الشاسعة ستكون جلية حتمًا، حتى لو وقفنا قريبين، سيسألني عن كل رجل صافحته، سيراقب كلماتي مع الناس، سيثير غيرتي بأي تصرف غريب، ليظن أنه ما زال يملك مشاعري، لا يدري أن الغيرة الآن لن تبقي عليه، كالأعوام القديمة، وإنما تأتي على كرامتي، لذلك تناسبني الوحدة في هذه المناسبات، لأصبح أنا.

عندما نخرج معًا، أجلس إلى جواره في السيارة ممتقعة وخائفة من المشكلة القادمة، قبل هذه المرحلة كنت أجلس إلى جواره بعدم ارتياح، كل الأشياء حولي تذكرني بأنه لا يهتم: زجاجي الذي لا يعمل، الأغاني التي لا أحبها، صمته، ردوده المقتضبة، استهانته. قبل هذه المرحلة كنت أجلس إلى جواره في مرح دائم أقص حكايات لا تنتهي، قبل هذه المرحلة كنا نتبادل العبارات المهذبة، النظرات الشغوفة، كنا نتلامس ونخطف القُبلات. أتذكر هذه المراحل في كل مرة يختلق مشكلة في السيارة تضطرنا للصمت الطويل المشحون.

استطعت أن أجتاز كل المراحل عدا الأخيرة، مرحلة الخوف. إن المرة الأولى التي شعرت فيها بالخوف من شريكي هي المرة الأولى التي أدركت فيها أن العلاقة لن تستمر. الخوف يلازمه شعور بأنه «يجب أن أرحل»، ولو اضطرتني الظروف إلى أن أعترف له بالعكس، بأنني أريده ولا أفكر أبدًا بالرحيل،

يلازمني شعور أبشع بأنني لست أكثر من مؤدية تمثل دورها بإتقان. الخروج عادة يفضح المسافات بين الزوجين، إما قريبان طبيعيان، وإما قريبان مُفتعلان، وإما غريبان.

حجرة الفندق

كنت أجلس على أطراف حلم قديم، أسأل نفسي: «ماذا أفعل هنا؟»، إنها القصة المكررة، قصة التيه التي تعاودني كلما استقررت، وكلما ظننت أن قدمَيَّ على الأرض، ويدي في يد السعادة، حتى يفلتني عزيز عليَّ، فأبدأ في رحلة السقوط، أعيشها بالتصوير البطيء، أعيش وأنا أسقط، أخرج، أعمل، أقابل الناس، أضحك، أنجح، أحتفل، أتمشى في براحي الجميل، وأنا مستمرة في السقوط.

لم تكن المرة الأولى التي يتآمر عليَّ فيها القدر، عندما أتاني صوت عبد الحليم يغني:

ما كنتش أعرف قبل النهارده

إن العيون دي تعرف تخون بالشكل ده

ولا كنت أصدق قبل النهارده

إن الحنان يقدر يكون بالشكل ده

الأغاني التي تصلح للسماع حتى لو بعد مائة عام، تأتيك أينما كنت، تخبرك أنه دائمًا هناك هذا الجبار الذي يغمرك بحنانه ثم يفلتك مرة واحدة، فلا تعرف كيف تنفلت بجسدك منه بينما أنت أسير حنانه القديم، ما زلت متشبثًا به.

في صباح هذا اليوم بدأنا سفريتنا الأولى مع أهله ونحن زوجان، مضت شهور قليلة على الزواج وكنت قد بدأت أصطدم بواقعيته المفرطة، لكن كل صدام كان ينتهي بضحكة مني، بهزار منه، بقُبلة، بأوراق صغيرة أكتبها تحوي الحب أو الأسف أو العتاب، كنت ما زلت أستطيع التحكم في خصامه بأصابع حبي، شيء كان ينغز قلبي بالخوف من هذه السفرية. توتره الغريب الذي جعل منه رجلًا قاسيًا وليس حبيبًا، لذلك عندما اصطدمنا هذه المرة، لم يحدثني طوال ساعات اليوم.

كنت وحيدة بينهم، يتحدثون ويضحكون، من دون أن يوجه أحدهم لي حديثًا، على الشاطئ تمشيت وحدي، تمامًا مثل أيامي قبل الزواج، مع فارق أن يدي الآن تلمع بدبلة ذهبية، قلبي لم يعد ملفوفًا بورق السلوفان، وبطني يحمل جنينًا عمره شهران، شعرت بغربتي بين أهله، أخته وزوجها يتبادلان الدلال

والغرام، وأنا العروس الصغيرة لا أحد يراني، أو يشعر بي، كان هذا هو اختياري، وهذا هو حبي، والطريق الذي قررت أن أسلكه بعد طول انتظار، فكيف تكون هذه النتيجة القاسية هي ما أجده في النهاية؟ أنا والوحدة التي طالما حاوطتني وظننت أنني تخلصت منها، لكنها في وجود حبيب كانت أسوأ وأقسى.

في المطعم تكرر الأمر، ثم في المركز التجاري، هناك قررت أن أتمرد على وضعي المُهين وأختفي حتى نهاية الخروجة. استأذنتهم للتمشية، مشيت خطوات فأتاني نداؤه العنيف كسوط على ظهري، إنها عادتي مع كل غضب، أن أتمشى، الخطوات تنظم أنفاسي وأفكاري وتهدئ من روحي، كان أبي يعاندني ويمنعني أحيانًا، فأكاد أجن من الغضب، يحاول زوجي أن يقوم بنفس الدور، ليس دور الأب في عطفه وحرصه، لكن في تقويمه.

عاندت، لم أجِبه، بعد ساعات من الصمت والإهمال كان يجب أن أعاند وأرفض، تطور النداء إلى ملاحقة، والملاحقة إلى جذب وعنف، أذكر صراخي:

ـ مجنون!

أذكر فمه المفتوح، عينيه البارزتين الحمراوين، وكفه التي تجذب ذراعي، أذكر أخته التي قالت:

ـ فضحتينا.

أذكر قدمَي اللتين مادتا بي فسقطت، أذكر صوته واضحًا وهو يقول لمن حاولوا استنهاضي:

ـ اتركوها إنها تدعي.

أذكر عندما قلت لفرد الأمن:

ـ إنه زوجي.

أذكر الكدمات الزرقاء لاحقًا على ذراعي، والتي كلما تكررت مزقت الكثير من خيوط ثقتي بالعالم والحب، أذكر سيري المُنكسر للسيارة وعيون الناس فوق جسدي، أذكر رغبتي العميقة في فتح باب السيارة ورمي نفسي منها، لكن الخوف منعني. ليس خوفًا دينيًّا أو أخلاقيًّا، لكنه الخوف من ألا أنجح في قتل نفسي والخلاص.

جلست وحدي في غرفة النوم بالفندق، لا أستطيع أن أتحدث لأحد من أهلي أو أصدقائي، كنت بائسة إلى درجة منعتني من الشكوى أو البوح، كان هو قد غادر الفندق، وكنت أفكر في اختياري، وحبي، وهذه القسوة التي لم تخطر لي على بال، بينما أتاني صوت حليم الرقراق يغني:

كان بيقولي باحبك أيوه كان بيقول

وانا من طيبة قلبي صدقته على طول

أتحسس بطني في ألم، أسأل نفسي: «هل تعجلت في حمل الطفل؟»، لكني أحببت هذا الرجل، هل تعجلت في حب هذا الرجل؟ إن الحقيقة المجردة لا تظهر إلا بعد الوقوع في المحظور، بعد أن نقف داخل المشهد ونكون نحن الأبطال، النور يُظهر الكادرات لكنه لا يظهر ما تحت الأقنعة، الحرائق تفعل.

كان أبي يقول: «عِندية لا تسمع الكلام». اعتبرته هذا النوع من اللوم الطبيعي الذي يوجهه الأهل لأبنائهم لأنهم لا ينفذون كل الأوامر، لكني في هذه الليلة راجعت نفسي: هل أنا حقًّا عنيدة هذا العناد الذي يُفسد الأمور؟ لطالما وافقت على كل ما تمنحني إياه الحياة ولم أتذمر، ولم أعارض إلا فيما يتعلق بحريتي. هل أحرجته بين أهله عندما تجاهلت نداءه؟ وهل لم يحرجني عندما تركني يومًا كاملًا مثل شيء مهمَل؟ هل لو لم أستأذن للتمشية وكنت انتظرت معهم حتى انتهى اليوم كنت سأتجنب كل ما حدث؟ لكن الشخص نفسه سيبقى هو، ومأساة خصامه وإهماله وجفائه ستبقى هي، كل الحكاية أنني كنت سأؤجل الانفجار لوقت آخر، لكنه حتمًا كان سيحدث.

على الرغم من انهياري الداخلي، كنت أنا الوحيدة بين أهله من انتظرت حتى عاد في منتصف الليل، وفتحت له باب الجناح. كل ما حدث بعدها كان مؤلمًا وصبيانيًّا، لم أنتبه للعلامة، تشبثت مثل الأطفال، عاندت مرة أخرى، كابرت وأصررت أنني على حق، وأن حياتي معه ناجحة ومستمرة وحلوة، لم نبعد ونقرر الفراق لأكثر من ساعات، لكن بقي هذا اليوم مثل الجرح الغائر الذي أسعفناه بسرعة، وأخذ وقته ليلتئم، لكننا لم نخِطه بغرز التفاهم والاتفاق، فترك في حياتنا ندبة. وبقي المشهد حيًّا في خيالي حتى الآن.

كل سفر بعدها كانت بهجته منقوصة، كنا نتوجس خيفة من خلاف محتمل أو مشكلة تنتظرنا. كل سفر كنا نستعيد الذكرى البعيدة ونتربص لبعضنا من دون إفصاح عن السبب الحقيقي. لم يتكرر المشهد القديم قَطُّ، لم أسمح له أن يتكرر، بدلت بعنادي صبرًا، وبفورة غضبي تجاهلًا وصمتًا أقنعت نفسي بأنها يجب أن تتواءم مع الطرف الآخر بكل الطرق. لكن هل جنبنا هذا الخلافات؟

مشكلته معي أنه كان لا يجدني، يبحث عني في البحر يجدني هائمة وحدي بين الماء، على الشاطئ أقرأ كتابًا، في المقاهي والمطاعم شاردة. خيالي المتقد، المشحون، كان التعامل معه صعبًا ويحتاج إلى قدرة هائلة على لفت الانتباه. وهو ما فقدناه مع السنوات، لم يعد أي منا يبذل مجهودًا للفت نظر الآخر. أنا اعتبرت وجوده في حياتي مضمونًا، وهو اعتبر وجودي في حياته اضطرارًا واحتياجًا. لا يهتم بأحلامي وخيالاتي وطموحي، وأضجر من أحاديثه عن العمل والمال ونظرته السوداوية للناس، مع الوقت أصبحت نقطة التقائنا الوحيدة هي الطفلين.

الواقفون على حافة الانفصال مثلنا كان يجب أن يدركوا أن السفر مع الأهل يبعد المسافات أكثر، دائمًا تجد طرفًا آخر تحدثه وتتودد إليه، تضطر للاتكال على شريكك عوضًا عن مشاركته، تنشغل بمواضيع أخرى ومشكلات أخرى عوضًا عن تركيزك على حل مشكلاتك معه أو مشكلاتكما مع الحياة، تسهر وتتسامر مع الأهل وتصبح العلاقة السريرية مع شريكك مشوبة بالحرج. كل هذا جعل من السفر في حياتي مجرد نزهة عائلية مثل تلك التي كنا نقوم بها ونحن صغار، مع فارق المسؤولية والانطلاق. كنت أحلم بسفر مختلف يُعيدني فتاة وعاشقة، وليس زوجة وأمًّا.

بين كل من عرفتهم في حياتي لم أجد إلا زوجين وحيدين يحرصان على السفر كل عام من دون أهل أو حتى أبناء، سفرية وحيدة تجدد المشاعر وتقرب القلبين وتجعل الأرواح حرة ومراهقة. لم يكن هذان الزوجان أول رجل وامرأة في حياة بعضهما، لكنهما كانا عاشقين حتى وهما يتكئان على بعضهما من أثر العمر، الشيء الذي تمنيته طوال عمري، وعلى بساطته لم أجده، ربما لأن مفاهيم زوجي كانت تعد الأسرة أهم من الزوجين، مع التجاهل التام لحقنا في إعادة بناء العلاقة التي تتصدع طوال العام، على الأقل ليبقى العمود الأساسي لأسرتنا ممشوقًا سعيدًا.

أحتفظ بصور السفرية الأخيرة لنا، وأنا بسيطة من دون زواق أضحك باطمئنان زوجة وأم، وهو يجلس بجسده الذي يبدو خاليًا من التوتر أو التحفز. كنا نبدو سعيدين، مرتاحين، على الرغم من كل شيء. ما أقسى ما تخفيه القلوب، والأقدار.

حجرة القيادة

أصبحتُ أنتظر الصباح بفارغ الصبر، عندما أترك المنزل أتخلص من أنا المخنوقة من النقد والتقريع، أنا الخائفة من ممارسة الكتابة، أنا المحبوسة بين الطلبات، وغير المسموح لها في أوقات الفراغ إلا بالتحديق في التلفزيون في برامج لا تحبها. وأعود إلى أنا التي لا تعبأ بشيء إلا بما يجعلها سعيدة وملهَمة، أنا التي أعرفها.

في الطريق أسمع الأغاني بشكل هستيري، لا تتوقف إصبعي عن البحث بين محطات الإذاعة، على الرغم من تكنولوجيا الهواتف الذكية والآيبود فإن البحث عن الأغاني القدرية على الراديو يستهويني أكثر، وهذه التجميعة العجيبة من الأغاني القديمة والحديثة، أغاني الأفلام وتترات المسلسلات، الأغاني النادرة وحتى أغاني الأطفال، تأسرني وتصنع نهاري.

على باب البيت أترك دورًا من أحب أدواري إليَّ، دور المرأة المُرفهة المُدللة التي تستعين برجل، وأسير في الحياة بدورٍ آخر هو دور المرأة المسؤولة القوية. في البيت حريتي محدودة إلا فيما يخصني، كل الأمور عليَّ أن أشارك فيها زوجي، حتى في غيابه يجب أن أنتظره لأتخذ قرارًا ما يخص البيت أو الأولاد. أما في الخارج فأنا حرة في اتخاذ القرارات التي تناسبني. بعض النساء يفرضن قراراتهن في الداخل والخارج، وبعض النساء يختلط عليهن الأمر وتتداخل حريتهن ودلالهن مع مسؤولياتهن، فيظنن أن الدلال واجب، ويلجأن إلى مهاتفات واستشارات دائمة للزوج، ويجعلنه مشجب الحياة.

وقعت في الفخ في أول سنة زواج، عندما اعتمدت على زوجي في توصيلي للعمل، وكان يفعلها بحب ورغبة حقيقية في الحفاظ عليَّ من زحام ومذلة المواصلات، وعلى الرغم من ذلك كنت أشعر بصمته وجفائه الصباحي، شعوره الذي بدأ يتسرب إليَّ بأنه مستاء من اعتمادي عليه، بأنه مضطر ونادم على إقدامه على هذا الفعل، وبالفعل مع أول خلاف حقيقي بيننا قال لي: «اتصرفي». وكان يجب أن أتصرف من البداية، قبل أن أجد نفسي حاملًا ببطن منفوخ وخطوات ثقيلة، مضطرة للبحث عن وسيلة مواصلات تقلني إلى العمل، كان يجب أن أتجنب هذه اللحظة عندما يُفلت يدي ـ وليس قلبي ـ لأقف في الحياة بطولي.

كان هو المسؤول في بداية زواجنا عن مشاويري بحسب مواعيده ومزاجه، وكنت ممتنة، سعيدة بكل هذه الأيام التي جمعتنا فيها سيارته، وكل المشاوير الخاصة بي التي قام بها معي وإصراري على مشاركته مشاويره، لكن الأمر لم

يدُم إذ بدأ يتذمر، لم يعد هو الذي عرفته في الخطوبة مُرحبًا بأبعد وأصعب المشاوير، أصبحت كل المشاوير السهلة، القريبة، ثقيلة عليه وإذا قام بها يلقي بكلمات كالشرر وأسئلة تضرب المودة في مقتل، مثل: «لماذا لا تذهبين وحدك؟»، «ماذا تفعلين أنتِ طوال اليوم؟ لا شيء، فلماذا لا تقومين بمشاويرك؟».

ثم قال:

ـ لماذا لا تجربين المواصلات العامة الرخيصة مثل الجميع؟

قُلت:

ـ لكنني لم أجربها قَطُّ.

قال:

ـ لماذا؟ على رأسك ريشة! لقد حان الوقت لتتوقفي عن الدلال وتصبحي مثل كل الناس.

قُلت:

ـ ولماذا تريد أن تجعلني مثل كل الناس؟

عندما بدأت في التحرك وحدي لقضاء مشاويري كانت خطوة فارقة في حياتي، مررت في البداية ببعض الاكتئاب والقلق، أول مرة أتعرض لتحرش مباشر، أول مرة أتعرض للزحام، والانتظار في الشمس، ورجرجة الباص، وصل بي الحنق من حياتي والامتلاء الشديد إلى الفيض بالحديث مع الغرباء، كنت إذا جلست بجوار امرأة أو فتاة في الباص المُكيف الذي اخترت التنقل فيه، أجد نفسي أحكي لها عن مشكلاتي، عن ضيقي وغضبي وأحيانًا عن مخاوفي، النساء في المواصلات لهن آذان مصغية وعقل مُدرك أنه لا مجال للمناقشة والنصح، الأدوار هنا تقتصر على السماع، وتنتهي بالوصول إلى المحطة ومغادرة العربة.

ذكرني هذا التصرف بقصة الممثلة الغربية التي كانت عندما يأفل نجمها وتكتئب تذهب معها طبيبتها النفسية عند سلم كهربائي بسوق تجاري، هناك تتظاهر الطبيبة بأنها متفاجئة وممتنة لرؤية فنانتها المفضلة، تلفت انتباه الناس الذين يتحولون فجأة إلى الفنانة ويظهرون مشاعرهم لها فتستعيد روحها.

بعض الحلول تكون عند الغرباء. لطالما كانت الفضفضة لأحدهم علاجًا، لكن بشرط أن يختفي بعدها. واحدة ممن فضفضت لهن ببعض شجوني قابلتها مرة أخرى في الكلية عند تقديمي لأوراق دراسة دبلومة، يومها تصرفتُ بغرابة لم أعرفها في نفسي عندما أتت لمصافحتي وتذكيري بنفسها، تظاهرت بأنني لا أعرفها، تركتها في ذهولها وغادرتها معتذرة بابتسامة.

من المؤسف بل والمؤلم أن أجد الراحة خارج أسوار البيت، إنها علامة كبيرة في درب الفراق. في يوم من الأيام الأخيرة عند عودتي من العمل، يوم مضطرب وحزين، كنت أسأل نفسي: ما فائدة أن يمنح أحدهم شيئًا جميلًا للآخر، ثم يطالبه به مع كل غضبة أو احتمالية فراق؟ هل كان المنح مرتبطًا بالعطاء المقابل، أو بالوجود المشروط؟ أم أن المنح مرتبط بالحب لهذا الشخص؟ هل كان المنح بغرض أم كان بريئًا من الأغراض؟

كنت أجدد رخصة القيادة في نفس المكان البعيد، والذي كان صحراء قبل عشرة أعوام. رأيت ساحة الامتحان الذي خضته وأنا ثمرة برتقال، مستديرة، متوسطة القسوة، فواحة بالصبا. أحمل صغيري داخلي في الشهر الأخير قبل أن يخرج للعالم. كنت أجلس باستدارتي الصغيرة خلف مقود السيارة أتحرك بحذر وتركيز نادرين بالنسبة لي. من دون قصد شغلت المساحات، ثم فتحت الراديو، ابتسم الصول ـ على أغنية يا حلو صبح ـ عندما طلبت منه أن يوقف المساحات على الأقل. في هذه المرة نجحت في الامتحان. عرفت عندما وجدته واقفًا في نقطة عالية عن ساحة الامتحان، من المرات القليلة التي أتذكر فيها وجهه جيدًا، ربما لأنها كانت من المرات النادرة التي تَهلل وجهه فيها بالفرحة، وقف يصفق وهو ينادي بين دهشة زوار المرور:

ـ برافو برافو نجحتِ.

خرجت من السيارة لحظتها أضحك كمن حصلت على الأوسكار لتوِّها. من بين كل ما فعله لي، عندما سُئلت ـ في وجوده ـ «ما هو أكثر موقف جميل لا تنسينه له؟»، رددت مباشرة ودموعي تغلبني:

ـ عندما صفق لي يوم نجحت في امتحان الرخصة.

رد بتعجب:

ـ يعني حتى ليس لأنني علمتك القيادة؟

وسكت، لأنه لم يفهم قَطّ أن أي مُدرب قد يعلمني القيادة، لكن ليس أي رجل سيقف ليصفق لي في المرور، هو لم يصفق بعدها، وأنا لعبت كل الأدوار، وخسرت الأوسكار.

كان عليَّ في يوم ما قبل الفراق أن أختار بين أن أسلمه مفتاح السيارة عند عودتي كما طلب، أو أن أصفَّها في مكان بعيد وأكذب وأقول إني تركتها عند العمل. لم أكن قد قررت الرحيل بعد. الرحيل الذي لم أختَره لكنه سقط فوق رأسي.

كذبت، تركتها بعيدة، وحيدة، متربة، في شارع غريب. تراجعت في اليوم التالي، قررت أن أتركها له كما تركت خمسة عشر عامًا من عمري، لملمت أشيائي المبعثرة بها، علب المانيكير، أسيتون، نظارة شمسية، زجاجة عطر، مُلمع أحذية، ثلاث روايات لم أحبها، حذاءين وثلاثة صنادل، أغلقت الباب وربت عليها، كأنني أودع صديقة قديمة، غير أني تألمت لفراقها أكثر، لأنني أعرف أنني لن أعود. غريب ما يفعله الجماد بنا، غريب أن نحبه، نشتاق إليه، نرعاه، ونحزن لفراقه ربما أكثر من بعض البشر.

كانت صديقتي الطيبة وكانت بيتي، حيث أتحرر، أسب، أغني بصوت عالٍ، أمارس هواياتي الجميلة، وكانت رفيقة السوء وشريكة كل الجرائم الصغيرة، شهدت على هروبي وكذبي وذهابي للمناسبات حيث لا يرغب هو أو أهلي، كانت تزمجر وتصطدم بأي شيء عندما تغضب من مشوار أجبرها عليه، تعرف أنه سيؤذيني، حتى الجماد يمكنه أن يعرف.

ودعتها كما نودع هذا الحب الذي يلتف حول رقبتنا مثل العشب المُتسلق الضار، ركبت سيارة أخرى لا تشبهني، لا تحبني، لا تهتم بأمري، صامتة كما يجدر بسيارة. كان يجب أن أعرف أن الطريق على الأسفلت أصعب وأقسى، لطالما وقفت وحدي مع السيارة نبحث عن مُنجِدٍ عندما تتعطل أو منقذ عندما نتوه، ولم أجد سوى نفسي، كان يجب أن ألغي من قاموسي فكرة وجود إنسان أطلبه فأجده، كان يجب أن أدرك أنني أنا الملجأ، أنا أبي وأمي وأخي وصديقي، أنا الحل لمشكلتي، وأنا مشكلتي.

حجرة العمل

على مكتب العمل أمسكت ورقة مسوَّدة وكتبت على ظهرها، استهللت النص بسؤال:

لماذا يا حبيبي الشفاه المغلقة؟

أكملت الكتابة بتركيز كامل وشرود اعتاد عليه من حولي، كانت صديقة تسترق النظر لورقتي بينما تتظاهر بالمرور حولي وخلفي ومن خلالي، مما اضطرني لاستكمال النص بحروف إنجليزية على طريقة الـ«فرانكو أراب». وكعادتي وقتها كلما انتهيت من نص أسميته، كتبت على رأس الصفحة «الشفاه المغلقة». كان هذا النص هو عتبة انتباهي للفارق بين الحب قبل وبعد الزواج. زوجة شابة في بداية العشرينيات تبدأ معاناتها المبكرة مع الخرس الزوجي، وإن كانت غلفت بها معاناة أخرى أخفتها بعناية، محاولاتها النزقة في صُنع قُبلة في كل مكان وزمان، والتي كانت غالبًا تواجه بالرفض، الرفض المتمثل في غلق الشفاه، كأنها تُقبل جدارًا.

قبل هذا المشهد بعدة أشهر كنا نقف معًا نتحدث في إحدى الطرقات الهادئة بالعمل، حين اقترب بجسده مني، كان هذا أول شعور أعرف معه معنى الجسد، وكيف تبدأ حدوده بالذوبان، وأجرب متعة جديدة، غريبة وجذابة، حين لفحتني حرارة جسده، أصبحت بعدها قطعة متوهجة تمشي على الأرض، عرفت الشوق الحقيقي لأول مرة، لكني لم أكن أعرف أن هذه المتعة ستكون سببًا لعذابي فيما بعد.

كان يزورني في العمل بشكل مستمر، نتجاذب أولى إشارات التفاهم بيننا، في البداية كنت أنصرف بعد دقائق من حديثنا، كنت حديثة عهد بالحب، مارسته من قبل في خيالي، على شكل مشاعر وراء جُدر، تفيض فتأتي على هيئة تصرف طفولي متهور متبوع ببُعد وألم، كلها قصص الطرف الواحد الساذجة التي تبدأ على استحياء في ملء القلب، وتنتهي بالتسرب السريع من الكفوف، لكني قَطُّ لم أعرفه على أرض الواقع، كقصة حقيقية بين رجل وامرأة.

قال:

ـ تقفين معي لبضع دقائق بينما قضيت ساعات حتى آتي، وأيامًا أحلم بأن أراك!

بعدها بدأت أعطي قلبي فرصة، بدأت أفهم الحب الموجود على الأرض وليس الحب الموجود في الأفلام والأغاني. طالت الوقفات في طرقات العمل، كل مرة أراه أو يحدثني على الهاتف أنطلق كالبرق رامية كل الأوراق حسبما اتفق. تسببت وقفتنا بمشكلات في العمل، قال البعض:

ـ لو كان يحبك لما تسبب لك في مشكلات.

وكان ردي كمستجدة حب:

ـ لأنكم لم تجربوا الحب تقولون هذا الكلام.

احتفظت بورقة «الشفاه المغلقة» وعدت لأستكمل عملي بهمة أكبر، لكن هذا لم يمنعني من محاولة الاتصال به، ولما لم يرد على اتصالي، حاولت من هواتف صديقاتي، ولما حفظ أرقامهن التي تسعفني مع كل غضبة بيننا، حاولت الاتصال من هاتف عامل بالقسم. عندما أستخدم الهاتف أفقد عقلي أكثر، كل مرة لا يرد يزداد إصراري وتشبثي بمهاتفته، ربما يعود هذا التصرف لعادة قديمة كنت أمارسها مع أبي، كنت كلما يغضب مني ألتصق به أكثر، يُبعدني وأقترب. أتساءل الآن، لماذا لا يعرف الرجال أن بعض النساء لا يحتملن الجفاء، يتألمن بعنف كأن الطيور تأكل من قلوبهن، كالظمآن الذي يجري وراء شربة ماء فيُهدر كرامته وكبرياءه لأجل أن يحيا، كلمة واحدة ترد فيه الحياة.

كان يدرك خوفي من الجفاء، يلاعبني، يجعل حياتي محفوفة بخطر الفراق، يمسك الكلمات الطيبة بخيوطٍ، تقصر وتطول، حسب ما أراد أن يقدم. أمام فمي الظمآن ترقص خيوط الكلمات المُروية، حتى أرضخ تمامًا فيُسقط الخيط حمولته هونًا في قلبي. لطالما تساءلت: ما الذي يعجب الرجل في أن يعيش مع نصف امرأة؟ نصفها الآخر مرهق ومرتبك وحزين، ماذا لو جرب أن ينقذها من شبح الجفاء؟ ماذا لو ضمد الجراح قبل النزف؟ ألا يدرك أنه عندما يموت جزء في قلب المرأة، تتحول نوبات الالتصاق عند الجفاء، إلى هروب وبُعد وجفاء أكبر.

قبل رحيلي من البيت قضيت أيامًا طويلة شاردة في العمل، أنظر إلى الورق وأستجمع الحروف المبعثرة أمامي لأُكوِّن جملًا مفيدة، أرد على الناس بذهن غائب، أدخل كل دقيقة على الرسائل بيننا على الهاتف، معظمها مني، أحاول التذكر والربط والتفنيد، أحاول اتخاذ القرارات، أحاول الاستعانة بالعلامات، أُسلم المطلوب مني في العمل في ضعف وقته، أسهو وأخطئ وأضيع. قبل قرار المغادرة بأيام وجدت نفسي أكتب على ورقة مسوَّدة، ثم أخرى، ثم

أخرى، عشر ورقات في ست ساعات، عشر ورقات من الغضب، من الشرح له ولنفسي أولًا، حتى وصلت إلى نتيجة نهائية.

في لحظة انتهائي من كتابة آخر ورقة شعرت أن عقلي يقفز بحدة ككرة البنج بونج في رأسي، روحي مثل قاع فنجان قهوة، وجسدي فارغ من الدماء، كانت الكتابة قد استنزفتني تمامًا. جمعت الأوراق لأتركها له في الصباح كمحاولة أخيرة، لكني لم أرَ لها في نفسي سوى عنوان واحد: «كتاب الطلاق».

الردهات ـ حجرة الأحاديث الجانبية

على كرسي المكتب جلست وأمامي أحد الملفات، أفحصه محاولة حشد تركيزي بعيدًا عن بطني الذي يتلوى في ألمٍ شهري أعرفه، ورأسي الذي ينبض بصداع شهري زائد الصداع النفسي المعتادً، عندما أفلتت مني عطسة شعرت بنفسي وأنا أنزلق في الدماء، أغوص في بحر لزج من الخوف والقلق، كان طفلي الأحادي الذي أنجبه كل شهر قد قرر النزول هذه المرة بصحبة مملكته الحمراء المتهشمة، دفعة واحدة. مملكته التي تنهار فوق رأسه كل شهر وتجبره على المغادرة وحيدًا.

كنت أعرف أن الوقوف يعني فضيحة كُبرى، والجلوس يعني انتشارًا سريعًا، وجهي الأصفر فضح اضطرابي، زميلة تمر لاحظت، فأسرعت بإحضار معطفها الطويل لأداري به نفسي وبقع ثيابي، كان أكبر غرق أحمر أمر به منذ سن المراهقة، حيث البقع الصغيرة التي تكشف فيض الأنوثة المُبكرة مع قلة الخبرة، عندما سألت طبيبي أرجَع الأمر للحالة النفسية. قال إنه من الأفضل أن أتناول أقراصًا تحد من النزيف، وددت أن أسأله عن أقراص تستطيع أن توقف نزيف روحي.

أجمل ما في العمل هذه الكلمة الشاملة، العامة في مظهرها، الدافئة في جوهرها: «الزمالة»، مع كل منحنى سيئ في حياتي كنت أجد الأصدقاء على الحدود، اتصالات قليلة، رسائل قصيرة باردة للاطمئنان، أما الزملاء فكنت أجد منهم السند المعنوي والأخوي، وأحيانًا الدعم المادي. يحركنا كيان واحد، أعرف أنه لو تفتت لعدنا غرباء، لكن ما دام موجودًا فنحن لبعضنا كالبنيان. «صباح الخير، مالك؟»، الأسئلة اليومية عن الصحة والأهل والأبناء، الكرسي الذي تشده إحداهن جوارك لتمنحك بعض الحنان والمودة، الوقفات القصيرة بين المكاتب للحكي والضحك والطبطبة، جلسات شرب القهوة مع أحاديث البنات التافهة، المرحة، المفيدة في آنٍ، هذه الفسحات الحلوة من الاهتمام التي نعود منها لمواصلة العمل بل والحياة بروح أفضل.

ألتقي زميلاتي في ردهات العمل فيحدث بين عيوننا تلاقٍ، تعودت مع بعضهن على الفضفضة السريعة، دقائق نحكي فيها ملخص مشاعرنا، نربت على أكتاف بعضنا البعض بأيادينا أو رموش عيوننا، أحيانًا نقول كلمة واحدة عابرة سريعة، وأحيانًا ننفصل عن كل شيء ونفرغ كل طاقة مشاعرنا في حديث طويل، نتفق على خروجات لا تحدث وقرارات لا تُنفَّذ، لكن مجرد الاتفاق يزيح بعض أتربة الحزن من أرواحنا.

في ردهات العمل أجد زملاء لا أعرفهم لكنهم يعرفونني، يعرفون الأخرى الكاتبة، أحيانًا يعلقون على كتاباتي بتعليقات شديدة العذوبة فيخرجونني من حدود العالم البغيض لدقائق، أشعر أنني أسبح على سحابات من السعادة والنجاح، في مرة بادرتني زميلة قائلة:

ـ أنتِ كتبتِني، في مشهد من روايتك الأولى عندما كانت البطلة تائهة ولا تستطيع الوصول إلى مدرسة ابنها، تواجه سخط زوجها وتقريعه لها بينما هي تائهة مع الصغير. هذه كنت أنا، شكرًا لأنك كتبتِني.

حكيتُ لكل زميلة فصلًا من حياتي، حسب ما أعرف أنها ستكون قادرة على استيعابه، ولديها من الخبرة الكافية لتعينني عليه، الخبرات المختلفة ساعدتني على التعرف على العالم الخارجي، الواقعي وليس الذي نقرأ عنه في الكتب، سمعت العديد من الآراء، أغلبها مبني على وجهات نظر فردية طبقًا لخبرات معينة، فالمُطلقة على الرغم منها تميل للطلاق لأنه كان قرارها، المُستقرة تميل للاستقرار حتى لو على حساب نفسها.

النصيحة العامة التي كانت تصر عليها الأغلبية على الرغم من المستويات الثقافية والاجتماعية المختلفة، هي «استحملي»، التخوف من المجتمع كان هو الشعور السائد أكثر من التخوف على الأفراد أنفسهم، بُعبُع الطلاق وشبح الوحدة في الحياة وكلام الناس والفرص السيئة فيما بعد الانفصال، كانت هي أهم المخاوف، أذكر عددًا من الزميلات اللاتي جعل الخوف من الانفصال زيجاتهن على الورق فقط.

بعد آخر واقعة ضرب والتي دمرت آخر ورقات صبري، طلبت من زميلة في قسم آخر أن أقابلها للضرورة في ردهة العمل، كنت أعرف أنه كانت لها حياة مشابهة. هناك قصصت عليها أدق موقف في حياتي، باختصار وتركيز، تألمنا معًا، حكت لي مواقفها المشابهة، لا أرى في هذا السلوك مزايدة كما يراه البعض، بل أرى فيه تراحمًا ومؤازرة وتبادل خبرات، وجملة مهمة تقول: «أنتِ لستِ وحدك»، أو كما يقول الأمريكان: «لقد كنت هناك»، عرفت من حديثها مستقبل علاقة قائمة على الضرب، ورأيت في حكايات الذعر عن ابنها مستقبل ولدَيَّ إن استمررت، وصلنا إلى عدة قرارات وغادرتها وأنا أشد حسمًا.

في يوم صادفت في الردهة زميلة قليلة الحديث، منزوية إلى حدٍّ ما، تتابع صفحتي، تقرأ كتاباتي وتحبها وتعلق عليها مع كل لقاء لنا، لاحظتْ توقفي عن نشر كتاباتي والهم الذي كسا ملامحي، سألتني فجاوبت بتحفظ بأنها مشكلات

في البيت، فاجأتني بقصتها التي لا يعرفها أحد مع زوج قاسٍ وحياة صعبة، بادلتها قصتي، وقراري، حكت لي عن قرار مماثل أخذته قبل أعوام، بنفس الحماس والقوة، لكنها بعد ستة أشهر عادت عن قرارها واستجابت لصلحه، كان مُبررها أنه وعد بأنه سيتغير، لم أصدقها. ضيقت عليها بأسئلتي حتى عرفت السبب الحقيقي، خوفها من الحياة وحيدة، والداها متوفيان، وأخوها مهاجر، قالت:

ـ من سيُربي أولادي؟ ومن سينفق علينا؟

قالت:

ـ لن أعيش حياتي شحاذة.

سألتها عن شعورها بعد سنوات من العدول عن قرارها، قالت:

ـ كل يوم يتأكد لي أننا غير متفاهمين وأنني غير سعيدة، لكني أعيش على أمل واحد، خططت له منذ سنوات، أن أنفصل عنه وأستقل بحياتي بعد تخرج أولادي من الجامعة.

قلت:

ـ لكن لماذا لا تفعلين هذا الآن؟ كم عمرًا نعيش حتى نضيعه في تعاسة وخطط وآمال؟

قلتها وأنا مدركة تمامًا أن حياة بلا خطط وآمال هي التعاسة ذاتها.

قالت:

ـ أولادي. عاهدت نفسي أن أظل معه وأحتمل أكثر حتى لا أعرض مستقبل الأولاد للخطر.

تركتها وأنا خائفة، كانت الشبح الذي أرعبني لأيام طويلة. لا أريد أن أكون هي.

حجرات الغرباء

حجرة الطبيب النفسي

بصوت متردد أكدت الموعد مع مساعد الطبيب واستمعت إلى شرحه الركيك لعنوان العيادة. في المساء كانت يداي ترتجفان على مقود السيارة، تركت طفلين صغيرين بالبيت، أخفيت مشواري عن الجميع حتى أقرب أصدقائي، مشيت أتخبط في الشوارع، أسأل الغرباء عن العنوان من دون فائدة، تأخرت عن موعدي فهاتفني مساعد الطبيب مهددًا إياي بإلغاء الموعد. فقدت كل أعصابي عندما صدمتني سيارة نصف نقل وخلعت «الإكصدام»، نزلت من سيارتي على غير عادتي في تجنب مشاجرات المرور، سببت سائق السيارة، عسكري المرور، رجلًا يمر بالشارع، والناس جميعًا. في لحظة ذهول منهم غادرت مسرعة والدموع تنسال على وجهي.

عندما شعرت بانسحاب روحي، برأسي الذي لا يتوقف عن النبض، بقلبي المخلوع من مكانه، بأعصابي التي تنفلت مني وتجري على الأرض مثل حبات عقد انفرط. بأصابعي المرتعشة، بوجهي الشاحب، بالأنيميا التي باتت تأكل من دمي، فكرت أن الوجع أقوى من مشاركته مع الأصدقاء مثل الأيام القديمة التي كان الشقاء فيها مجرد كلمة. أو من كتابته على الورق مثل هذه الأيام.

فكرتي عن العلاج النفسي استقيتها من الأفلام، امرأة شاردة، تدخن بتوتر أمام الطبيب، تخفي الأمر لأنها تعلم كارثية أن يعرف الناس أنها تزور طبيبًا نفسيًّا، لا تريد أن تثير شفقة الغرباء أو حسرة المقربين. أما فكرتي عن المرض النفسي فتأثرت بقراءتي للسير الذاتية للمبدعين والتي عادة ما تمر أو تنتهي بمرض نفسي. مصير المبدعين المنتحرين كان يشعرني بالخوف من نفسي، من هذه اللحظة التي أفقد فيها سيطرتي على أنا المؤمنة، المتوهجة، المقبلة على الحياة. لذلك قررت أنني أحتاج إلى المساعدة من متخصص نفسي، ربما يعيد لي نفسي.

عندما دخلت غرفته أخيرًا لم يطلب مني الجلوس على شيزلونج، لم يكن هناك شيزلونج من الأساس، كنت قبالته أنظر إليه كنظر الغريق للقشة، وكانت نظرته هادئة، مطمئنة، نظر إلى ملامحي المنهارة وقال:

ـ ما الذي حدث؟

قلت:

ـ أنا حصلت لي حادثة.

كان هذا شعوري.

ساعتان من الحكي غير المخطط، غير المشروط، إلا بالوقت. كل ما أخافه، وأخجل منه، ويشغلني. كان يسمعني، يوافق، يشجب ويتعجب بعينيه، أخبرته بجملة لم أكن أدركها لكنها طفت فجأة فوق روحي:

ـ أشعر أنني امرأة سيئة.

قال:

ـ لو كنتِ كذلك لما أتيتِ إلى هنا.

ثم بدأ يحلل معي الشخصيات حولي، أخبرني عن عُقد زوجي منذ شبابه المبكر وعن أسباب جفائه وقسوته معي عكس معاملته للناس، أخبرني عن نتيجة تصرفاتي العفوية بتحميله مسؤوليتي أو استخدام الدلال معه، مما جعله يفسر ذلك بأنني أستغله، إقبالي عليه في البداية الذي جعله يشعر أنني أود أن أصل إلى خصوصياته فسارع بإقامة حاجز بيننا.

تنبأ طبيبي ببعض المواقف والتصرفات والردود قبل أن أحكيها، عرف أن زوجي يضربني، وأنه يهينني كلما سنحت له الفرصة، عرف أنه لا يقبلني أبدًا، قال إن هذه التصرفات نتيجة شعوره أنه يجب أن «يربيني حتى أبقى في طوعه». بدأ يفسر لي محاولات أصدقائي في احتواء حزني.

ـ لا تسمعي لهم لأن نصائحهم تخص حياتهم لا حياتك.

وأهلي راح يشرح لي كيف تأخذهم أفكارهم تجاه مشكلتي:

ـ خائفون من تحديد موقفهم، من لومك لهم في المستقبل، يريدونك أن ترحلي من دون إشارة منهم.

كان يصل بي إلى نتائج لم أتوقعها ممن حولي. يظهرهم لي كما لم أعرفهم قَطّ، لم يحاول، مثل التصورات الدرامية، أن يعرف عن حياتي قبل ظهور المشكلات أو أن يفتش في طفولتي عن أي رواسب لعُقد. سمعت فيما بعد أن المتخصصين يعرفون أصحاب العُقد من البداية، هو عرف أنه لم تكن في حياتي عُقدة.

في نهاية الجلسة التي ما أردتها أن تنتهي كتب لي دواءً مضادًّا للاكتئاب، قال إن هذا سيجعلني أهدأ وأكثر قدرة على مقاومة الضيق، بل إنه سيجعلني في مزاج جيد طوال اليوم. تركته وأنا خفيفة كمن تخلص من عبء ثقيل على الأكتاف، لكن لم يدُم الأمر لأكثر من ساعات، هاتفت خلالها أمي وأخبرتها أنني كنت عند طبيب نفسي، وأنني بخير. ابتلعت كلامي بمزيد من التحمل والتظاهر أن كل شيء سيصبح بخير. انتهت لحظات الخفة مع أول قرص مضاد للاكتئاب يدخل جوفي.

تقيأت مثل امرأة حبلى، كنت حبلى بالوجع، رفضت معدتي الطعام فزاد هُزالي، في الزيارات التالية لم أخبره بأنني امتنعت عن دوائه، استمررت في الحكي، واستمر في التحليل والإشارة إلى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور إن لم أتغير. كان الحديث كله يلف حول جملة «إن لم تتغيري» دون المساس بها، أو محاولة فض سرها، راحتي في الحكي منعتني عن سؤاله، الذي تحرر أخيرًا من لساني في المرة الأخيرة:

ـ كيف أتغير يا دكتور؟

وهو الطبيب الكبير، المشهور، الذي يساوي كشفه راتبًا شهريًّا لموظف حكومي، وقف أمام جملتي كتلميذ خائب، صمت لدقائق وارتبكت ملامحه قبل أن يقول:

ـ أرى أن تتركي البيت وتقيمي عند والديك حتى يعرف قيمتك.

كتبت جملته في ذهني وحدقت فيها، كم مرة سمعتها، كم مرة فكرت فيها، قيمتي! أين قيمتي بعد كل ما حكيته؟ إذا لم يعرفها في قربي فهل سيعرفها في بُعدي؟ وهل لو كنت أحكي لإحدى قريباتي كان ردها سيختلف؟ تذكرت صديقتي التي اقترحت عليها الطبيبة النفسية ذات مرة أن تطلب الطلاق!

يومها خرجت أكثر تشتتًا من أول زيارة، أعدت محاولة تناول أقراص الاكتئاب مرة أخرى، تحملت القيء والهزة الروحية التي يصنعها الدواء، أسبوعان من الكتمان والتحمل، حتى أقنعت نفسي أنني شفيت، وأنني لست بحاجة إلى دواء أو طبيب، لكن ذات نهار كئيب تركت عملي وأنا على شفا الانهيار، أجوب شوارع تؤلمني وأسمع أغاني تؤلمني، على أعتاب أمي ألقيت كل ما في نفسي، ليس بنفس حريتي مع طبيبي لكن بطبطبتها ولهفتها استطاعت أن تعوض الحرية، الحنان يُعوض أي شيء وكل شيء. على الأقل سأعذرها إن قالت: «اطلبي الطلاق».

بعد عدة سنوات من هذا اليوم، وفي توقيت ظننت أنني قد شفيت فيه من الأذى النفسي والخوف والقلق، كنت أضحك مع ولدَيَّ في بيت صيفي نقضي فيه إجازتنا. يومها قدت دراجة هوائية بسعادة، التقطنا الصور السيلفي بتطبيقات مضحكة، وبالتطبيقات أيضًا ضحكنا على شكلنا في أعمار وأوضاع مختلفة. كنت أجلس أمام البحر غارقة في بحر خيالاتي، أفكر في فكرة عمل جديد ربما، أو في اللاشيء. انتشلني هو من بحر أحلامي بخطافه المعتاد، بكلمة نابية وجهها إليَّ.

كنت أتساقط أمامه في السيارة، سقط لساني بعد أول رد، سقط قلبي مع أول صفعة، سقطت عيناي فلم أعد أراه، سقط عقلي ففتحتُ باب السيارة وألقيت نفسي خارجها. يقول الولدان إنني طلبت منه أن يتوقف لكنه لم يستجِب. كان هذا خوفي الذي طلب منه التوقف. خوفي وحبي لهما. عندما كنت على الأرض، لم تؤلمني الكدمات في جسدي، لم يؤلمني الفزع في وجه ولدَيَّ، آلمني أنه لم ينزل من مكانه ليطمئن عليَّ. كيف بعد أن سقطت مني كل أسباب إدراكي ما زلت أنتظر منه لفتة تقول: «نعم. أنا أحبك». يا لسذاجتي القبيحة!

في البيت الصيفي بعدها بساعة واحدة، وقفت أطهو طعامًا لم يأكله غيره. وجلست مع الولدين أحاول مواصلة الحديث والضحك كأن شيئًا لم يكن. لكنه قد كان. كان لهما أكثر مما كان لي. إنهما لن يدركا أبدًا أنني أردت الخلاص لا الموت. الغريب أنني بعدها لم أشعر برغبة لزيارة الطبيب النفسي، كأنني وصلت تمامًا إلى نقطة سعيت لأدركها. لا شيء في الحياة يستحق موتي وحسرة أحبائي.

في يوم تلا اليوم الذي ألقيت بنفسي فيه من السيارة، وجدت رسالة من فتاة لا أعرفها تستنجد بي، تقول إنها ترغب في الانتحار وإن الحياة تضيق بها وهي تضيق بالحياة، دونًا عن الناس اختارتني أنا لأثنيها عن الخلاص! وعلى الرغم من أنني لا أجيد المواساة والتحاور الطويل والتأثير المباشر، فإنني لم أتركها إلا بعد أن صورت لها أن الفرص تنبت كل يوم والأحوال تتغير كل دقيقة، واليأس عمره قصير والإحباط لا يليق بامرأة تختال بأحلامها.

الآن، على الرغم من أنني أصبحت أكثر قدرة ومهارة على الحكي وانتقاء من أحكي له، لم أغادر نقطة احتياجي لطبيب متخصص يساعدني في حل علمي وعملي لمشكلاتي، كل يوم أدون أرقامًا وأسماء وأحجز مواعيد أعتذر عن عدم حضورها، ربما لأنني ما زلت أمنِّي نفسي بعصا الساحر وبوجود مُعلم في هيئة

طبيب، أو طبيب في هيئة مُعلم. أريد مُرشدي الخاص. حتى لو كان دوره الوحيد أن يمنحني محبة خالصة.

حجرة المحامي

«تحدثي مع محامٍ»

هي الجملة التي حاصرتني أيامًا عديدة، ومن كل من سمع شطرًا من حكايتي. كنت أرفض خوفًا من كل هذه الألفاظ التي ارتبطت عندي بعالم آخر غير عالمي، عالم من القساة، الظالمين، المُضطهِدين (محكمة، قسم شرطة، محامٍ، قضية)، دنيا لا أنتمي إليها ولا أريد، لا تشبهني، لا تنصفني، لا تَجبرني. دنيا ظاهرُها العدل وباطنها العذاب. لكن مَن ممن دخلوا هذه الدنيا القاسية على الضفة الأخرى لعالمي أراد أن يدخلها؟

جمعت كل أرقام وأسماء المحامين من ترشيحات الأصدقاء، لم يكن لأهلي أي ترشيح لأنهم كانوا معي على نفس ضفتي الساذجة، لم أفاضل بينهم بما عرفته من أن فلانًا خرب بيت طليق فلانة، أو أن علانًا كاد يُدخل زوج علانة السجن، أو أن ترتان أعاد حق ترتانة من حبات عين زوجها، كنت أفاضل عن طريق راحتي النفسية للاسم، في بيتي القديم ومن غرفتي اتصلت به.

رجل لا أعرف عنه سوى اسمه، أحدثه بخجل وتكتم، يحدثني كأنه قريب، لم يسألني بطريقة معلوماتية كما توقعت، سألني كأخٍ متفهم يريد أن يعرف ما يضير أخته. كنت متماسكة في هذا اليوم، أحاول أنَ أتصرف كأنني سوية على الرغم من الإنهاك الذهني والنفسي الذي وصلت إليه، كنت مثل الجدار الذي يخفي الطوفان خلفه، لكن حديثي مع غريب يعرض اهتمامه ومساعدته جعل الجدار ينهار من أول سؤال.

تحول إحساسي به من دون أن أدري إلى طبيب نفسي، وجدتني أحكي له من أول يوم لآخر يوم، تداعت الأحداث والتفاصيل بشكل هزلي غير منسق، انهمرت دموعي كما لم تنهمر بين الأصدقاء وأمام الأهل، كل تعبيراتي وتشبيهاتي التي كانت محبوسة فيَّ عاجزة عن الخروج، فرت مني على الهاتف في مقطوعة طويلة حزينة شعرية بلا مجاز، وكان متعاطفًا، مذهولًا كرجل قبل أن يكون كمحامٍ، شعرت بأن الشعرة الفاصلة بين مهنيته وإنسانيته ذابت في نهنهتي بين الكلمات، كنت أحدثه عن آمالي البسيطة القديمة في بيت سعيد هادئ، عن الرجل الذي كنت أحبه، عن التحولات التي جرت في حياتي، عن نفسي المحطمة الآن، سألته:

ـ لماذا حدث كل هذا؟

بعد ساعة انقطع الخط. أفقت فجأة على آثار الطوفان حولي، وأمي تسألني على الرغم من معرفتها:

ـ مع من كنت تتحدثين؟

اتصالاته العديدة بعد انقطاع الخط ولعدة أيام لم أرد عليها، كان الاتصال الأول والأخير بيننا، شعرت أنه أصبح يعرف أكثر من اللازم وأن هذا يجرحني، وأنا أريد أن أكون قوية أمام من يؤدي لي خدمة. اتصلت بعده بمحاميين، استمررت بالاتصال مع المتفائل منهما، اخترت من كان يضحك، ما زالت اختياراتي غريبة ليست لها منهجية، ما زلت أؤمن بحدسي وأتبع قلبي، الأحمق.

ـ بم أخبرك المحامي؟

أنظر إلى عيون ابنَيَّ ووجهيهما عندما ينسى أحدنا ويذكر كلمة محامٍ أمامهما، أشعر بهما ينفصلان عني وعن العالم، يدخلان في دوائر من الانشغالً المزيف، في طريقنا للهروب سألني الكبير:

ـ لماذا أنا من يحدث معه كل هذا؟ لماذا يضرب أبي أمي؟ لماذا تترك أمي البيت؟ لماذا لا يحدث هذا مع أيٍّ من أصدقائي؟

كان بائسًا بشكل لم أرَه فيه من قبل، تطلب الأمر الكثير من كتمان الدموع والفزع، تطلب الكثير من البيتزا وكريب الشوكولاتة والوافلز، والسينما والألعاب، كل هذا لم يجعل حياته أسهل ولم يبث الأمان في نفسه. أذكر صوته الحزين ودموعه المخنوقة قبل هذا اليوم بعامين عندما قال:

ـ مش عايزكم تتطلقوا.

لكن في هذه المرة عندما عقدت أحد اجتماعاتي الصغيرة لهما وسألته:

ـ أعمل إيه؟

قال:

ـ اتطلقوا، أحسن ما أشوفكم بتعملوا كده في بعض.

سمعت نصيحة صديقتي المعالجة النفسية، دعوتهما في مكان هادئ بعيدًا عن البيت، شعر ابني الكبير بالفخ، وقبل أن نصل كان قد تركنا وسار بعيدًا، ناديت

عليه، ركضت خلفه، عندما شعر بغضبي توقف وأشار لي بيده على فمه كمن يغلق سحَّابًا، كان مفاد تصرفه أنه لن يتفوه بكلمة، الصغير تبعه وقال:

ـ أنا مثله.

ماذا يعني أي شيء في الوجود عندما يقرر أطفالك حبس مشاعرهم، عدم مشاركتك بهواجسهم، مخاوفهم وأفكارهم الصغيرة، الغريبة. ونحن الأصدقاء دائمًا، لكن صداقتي لم تشفع في جعلي أقرب مما أظن.

ـ اكتبي أسئلتك للمحامي حتى لا تنسي.

كنت أقف أمامه كجندي أعزل قرر أن يسلم نفسه، في يوم قبل الرحيل طلبت منه أن نتحدث، تجاهلني، دخن سيجارة، صنع قهوة وشربها، راح وجاء، دخل كل الغرف، حتى جلس أخيرًا أمامي، كان يتحدث كرجل يضمن بقاء المرأة التي أمامه، لم يدرك للحظة أنني كنت قد اتخذت قراري بالرحيل، وحديثي معه لأعزز القرار ليس أكثر، بعد الكثير من كلماته التي استقرت كالرصاصات في قلبي، قال ما كنت أنتظره لأتأكد أن قراري صحيح:

ـ لا تفاهم عندي، إذا رحلتِ: ولداي سآخذهما، سمعتك سأشوهها، عملك سأحاربك فيه، كل شيء أستطيع أن أجعلك تخسرينه لن أتردد، لن أطلقك. إذا أردتِ اذهبي إلى محامٍ.

هل هذا هو الرجل الذي نمت إلى جواره سنوات عديدة؟ لوهلة شعرت أنني سأقول كما كنت أقول دائمًا: «حسنًا، لكن هل يمكن أن تذهب إليه معي؟»، نعم كنت أحتاج إليه وأطلب مرافقته في كل مشاويري في سنواتنا الأولى، كنت أحب وجودنا معًا حتى في أبسط المشاوير، لكنه سئم مني، أصبح يتجاهلني، ثم ألقى على كاهلي كل شيء، أصبح يقول عندما أطلب منه أي طلب: «اعتبري إني مش موجود، ميت»، لم يفهم قَطُّ أنه عندما تُعلم المرأة كيف تعتمد على نفسها من دونك، من دون حتى وجودك المعنوي، فأنت تُعلمها كيف تستغني عنك، كيف لا تحتاج إليك. كيف تذهب إلى المحامي من دونك.

كنا نِدَّين، ظننت أن الحب سيغيره، وظن أن الضغط سيغيرني. في الأعوام الأخيرة كانت حروبنا مستمرة، كنا نعرف نقاط ضعفنا فنضرب بعضنا في مقتل، علاقتنا المتذبذبة أصبحت قريبة تمامًا من خط الموت، منذ تركته وأنا في دائرة عذاب جديدة، لم أفتقده، لكنني افتقدت أيامي المستقرة مع رجل أعتمد عليه، أطمئن بوجوده، أسمعه يلعب مع الصغيرين، فأحمد الله على أنني صبرت، لكن ما معنى أن تفتقد أيامًا قليلة في عام طويل من التجهم،

والغضب، والتهديد والقسوة، الافتقاد في هذه الحالة حماقة كبرى، غير أن كلّا منا كان يبدو كطفل مصرٍّ على الاحتفاظ بلعبة مكسورة.

ـ أرسلي توكيلًا للمحامي.

يسألني المحامي أسئلة شخصية، يناقشني في تفاصيل لا أخبر عنها أحدًا، أصدمه أكثر مما يصدمني، عندما أقول له بفزع: «لا... لا أريد أن نفعل هذا»، أو «لن أستطيع أن أفعل هذا به»، أو «تجنب هذا أرجوك»، في مرة قالت صديقة لي:

ـ إن لم تتمني أن تحترق الشقة بأثاثها به، فأنت ما زلت باقية عليه.

شعرت بأن ما يجمعني به شعور غريب بالمسؤولية، يكبلني هذا الرجل بشعوري أنني أحد أسباب أحزانه التي أتاني بها، خذلان الأهل، إحباطات في العمل، هزائم الواقع، الخوف المرضي من المستقبل. حاولت أن أساعده في التخطي، فجذبني هو للسقوط. أتاني وهو يشكو الدنيا، ففتحت له أذرع حبي لأقول أنا أهلك وعملك ومستقبلك وكل صعب برفقتي سيهون، لكنه اختار أن أهون أنا.

حميمية سؤال المحامي عني كل عدة أيام كأنه صديق أو قريب، ذكرتني بزميلة العمل التي تزوجت المحامي الذي ساعدها في إجراءات طلاقها، مشكلة الخيال أنه يفرض على الإنسان سيناريوهات دائمة، مثل أن أكون في لقاء تلفزيوني مع كاتب، فأتخيل حديثنا بعد اللقاء، محاولته للتقرب، إجفالي، رسائله، النصوص التي سيكتبها لي، كل هذا في ثوانٍ قليلة بين الفاصل والآخر. هكذا تخيلت المحامي اللطيف، سيكون بشارب وثياب موظفين، سيتظاهر بحب ابنَي، سيمثل عليَّ النبل والإحساس، سيوهمني بالحماية، سأرفضه وأخسر كل قضاياي.

ـ مش كفاية إننا مش في بيتنا؟!

قالها ابني الأصغر إثر مشاجرة صغيرة معي، لكن كلمات الأبناء مهما كانت صغيرة تحمل في طياتها معاني كبيرة.كل التبريرات تبدو طفولية أمام كلمات الأطفال الواضحة، الفاضحة. كنت أحدث المحامي، سألته بضعة أسئلة ساذجة، قال:

ـ تصعبين عليَّ الأمور، تتنازلين عن كل شيء، ترفضين أن أجلب حقوقك، لا تتعاونين معي، حتى التوكيل تتلكئين في إرساله إليَّ.

كدت أقول: «من أنت لتحدثني بهذا العشم؟ إن دورك في حياتي أن تحفظ حقوق طفلَي وتحميني». لكني صمت، شعرت أن هذا الرد كان سيبدو مناسبًا لو قلته لزوجي: «دورك في حياتي أن تحافظ على حقوق طفلَي وتحميني». لم أتخيل قَطُّ أنني سأطلب الحماية من غريب.

ـ مع من كنتِ تتحدثين؟

سأل الصغير.

ـ مع عمو المحامي يا حبيبي.

حجرة المعالجة النفسية

لماذا لم تفلح معي كل الفيديوهات والمقالات التي يفترض بها أن تغير الإنسان إلى الأفضل، وأن تنمي قدراته الإنسانية وتأخذ بيده إلى حياة صحية ناجحة؟

لماذا يلازمني الرفض؟

كنت متحمسة جدًّا في أثناء سماع المحاضرة على موقع يوتيوب، كتبت بعض الملاحظات والمقولات التي أعجبتني، كتبت مثلًا: عندما تغير نظرتك للأشياء من حولك تجد كل شيء حولك قد تغير.

انتهيت من مشاهدة الفيديو وأنا ممتلئة بالأمل الجميل، أشعر أنني أكبر من العالم، أكبر إلى درجة تسمح لي باحتضانه، والغفران له، لكن هذا الشعور لم يدُم لأكثر من دقائق، انتهى مع أول صدام مع سائق ميكروباص في أثناء القيادة. الحقيقة أنني أردت أن أصدق ثقتي في الصديق مرسل الفيديو ليس أكثر. مشكلتي أن كل كلمات التنمية الذاتية والبشرية لا تؤثر فيَّ. أعتقد في مؤشراتها الإيجابية أنها بديهيات يصعب تحقيقها، وفي مؤشراتها السلبية أنها طبيعة بشرية لن تتغير.

في العام الأخير جمعت عددًا لا بأس به من أرقام وأسماء الأطباء والمعالجين النفسيين، كنت أقوم باختبارات الضغط العصبي، والقلق والاكتئاب، أنجح بجدارة في الضغط العصبي. ثم يأتي الاكتئاب. أما عن الضغط العصبي فهو نتاج الخوف من المستقبل، ولأكون أدق في التحليل، إنه نتيجة سؤال واحد مُلح، إجابته تُرعبني: «هل سأستمر في هذه العلاقة ـ الحياة ـ حتى النهاية؟»، وهو نتيجة المشاحنات اليومية، التجاهل والقهر والإحباط الذي يحقنه الرجل الذي اخترته في دمي، كنت أبادله التجاهل وأصيبه بالإحباط كذلك، لكني كنت سريعة الانتكاس، أعود من كلمة، من تصرف بسيط، من شبه ابتسامة، من مناسبة منسية، ذلك لأن جفائي لم يكن أكثر من ردة فعل، أما هو فلا يعيده شيء، كان جفاؤه هو الفعل الذي اختار أن يفعله، يكونه، ويعيشه.

ذهبت إلى المعالجة النفسية عندما شعرت بحاجة إلى صديق محايد، يواجهني بحسم، لا يتعاطف معي، لا يخشى غضبي أو دموعي، لا يساعدني على التحليل وربط الأمور، والأهم ألا يكتب لي مضادات الاكتئاب البغيضة. كنت بحاجة إلى شخص يساعدني على الرؤية، على التغيير، على التعامل مع مفردات الحياة بذكاء وثقة، شخص يساعدني على أن أحمي نفسي من التفكير في جدوى الحياة. شخص من لحم ودم، لا أراه من وراء شاشة أو من بين دفتَي كتاب.

ربما يكون التواصل بالعيون والإشارات والهمهمات أكثر قدرة على مقاومة رفضي للتنمية البشرية.

اخترت الأشهر، والأغلى، وقبل هذا الأقرب، كانت هذه الأسباب كافية لاختيارها، ربما أكثر من أن ترشحها لي صديقة، عقدة أن الأغلى هو الأكفأ تسيطر عليَّ دائمًا، وإن كانت تؤجل خططي باستمرار. بداخل بناية أنيقة انتظرت في مكتب على الطراز الإسلامي، مرآة بإطار مشربية، قناديل تتدلى من السقف، طقم أرابيسك مُطعَّم بالصدف نجلس عليه، خطوط عربية على الجدران. سألتني فتاة عن بيانات زوجي، رفضت الإدلاء إلا باسمه الأول، شعرت لوهلة بالوحدة عند ذكره. عندما دخلت إليها قابلتني بلطف ثم استأذنت للصلاة، كانت هذه هي اللحظة التي رددت فيها جملة لعادل إمام، أخشى أن يكون هذا هو «أغلى كيس بلح في العالم!». في الأعوام الأخيرة بالذات أصبحت المظاهر الدينية مثيرة للريبة أكثر منها للطمأنة.

كانت تبدو نشيطة، سريعة الحركة، شخصية بصرية كما وصفت نفسها لاحقًا، لا تهتم بالكلام مثل اهتمامها بالصور، مما دعاني لسؤالها لاحقًا أيضًا: كيف تعتبر نفسها شخصية بصرية في حين أن طبيعة عملها تحتم عليها أن تستمع لأحاديثنا الطويلة المتشابكة؟ ردت حينها أن الحديث يدور في خيالها على هيئة صور. وكان هذا ما شعرتُ به، كانت تكتب ما أقوله بطريقة أقرب إلى الرسم، كلمات حولها دائرة، أخرى يحدها مربع، خطوط مستقيمة ومتعرجة. هذه المرة كنت على دراية بذاتي، تحدثت بتركيز وتلخيص مناسب للخمسين دقيقة المتاحة، حكيت عن النقاط الأكثر إيلامًا في حياتي، نسيت ذكر الكثير، فالألم الذي عشته يتسع لأضعاف الخمسين دقيقة.

كنت أفكر قبل ذهابي إليها عما يفترض بها أن تقوله بعد خمسين دقيقة فقط لتشعرني أنها قدمت لي شيئًا مفيدًا، وأنني لم أخسر أموالي، هل ستقدم نصيحة تشبه نصائح النساء؟ هل ستقول كلامًا له بريق مزيف مثل كتب التنمية البشرية؟ هل ستضمني لصدرها مثل أمي؟ ألقيت كل ما في جعبتي في الوقت المحدد وانتظرت، قالت من دون تجميل أو مواربة كما تمنيت: ـ عادة في مثل حالتك أنصح بالطلاق، وعادة من أنصحهم به لا يستجيبون، ثم يعودون بعد عام أو أكثر وقد وقع.

كنت أبتسم في بلاهة كعادتي البغيضة مع الغرباء، عندما سألتني: ـ أرى في عينيك أنك تريدين الاستمرار. هل ستنفذين ما أطلبه منك؟

قلت:

ـ نعم.

قالت:

ـ سنستخدم خطة بها بعض الشر.

انفرجت شفتاي عن ابتسامة حقيقية، رددت في داخلي: «هذا تمامًا ما أريد».

قالت وهي تكتب أو ترسم:

ـ فترة هدنة حتى تنسيا.

قُلت متعجلة:

ـ أعيشها منذ مدة. ثم ماذا؟

قالت:

ـ أدخليه في دائرة لذة.

أعجبني اللفظ «دائرة لذة»، إلى درجة أنني شعرت أنني استرددت نصف أموالي، شرحت خطتها بإيجاز في غضون خمس دقائق، دائرة اللذة تعني أن أفعل كل شيء يحبه، التفاصيل الصغيرة بالذات؛ الطعام، الحلوى، مشاهدة برنامج يحبه معًا، قول الجمل التي يحبها، تهيئة مكان الجلوس الذي يحبه، الاهتمام بأشيائه الصغيرة. في الحقيقة حاولت فعل هذا مرارًا وعلى فترات، من دون جدوى، ومع ذلك تحمست لخطتها، أقنعت نفسي أنني لم أكن مخلصة في إدخاله لدائرة لذة بقدر ما كنت أحاول استمالته لنعيش حياة سوية.

الخطوة الأخيرة كانت أن أقول له جملة لقَّنتها لي قبل أن تكتبها، هي محاولة لإقناعه أن يأتي لزيارتها، بطريقة توحي بأنني أريده أن يأتي لكي تساعدني المتخصصة على أن أكون أكثر قدرة على إسعاده. لم تعجبني الجملة تمامًا ولكني لم أظهر تحفظي. قالت: ـ لماذا لا تنفصلين عنه؟

قُلت كلامًا كثيرًا، وأشرت إلى أنني أخاف الوحدة، لأنني لا أتطلع لزواج ثانٍ.

انفعلت:

ـ لماذا؟ لماذا تقلن كلكن نفس الجملة؟ ألم يحلل الله لكُن الزواج؟ لمَ لا تفكرن أنه قد يكون العوض الجميل؟

قبل أن تنتهي الجلسة سألتني سؤالًا أخيرًا: ـ لماذا أتيتِ اليوم؟

قلت:

ـ لأنني أريد أن أغير حياتي، لأجل سعادة ابنَي.

قالت:

ـ لا! يجب أن تكون العبارة هكذا...

وكتبت جملتي «لأجل سعادة...»، ودونت اسمي.

ما كتبته لي أشعرني أنني استعدت كل أموالي.

دعتني هذه السيدة النشيطة، الذكية، إلى دورة تقدمها في التنمية العائلية، كنت في غاية الحماس، أقنعت نفسي خلال هذه الأيام بأنني أستطيع أن أغير حياتي، أبرمج الآخرين، أكون هادئة، طيعة في الظاهر، مسيطرة في الحقيقة. أستطيع أن أقدر ذكائي وشخصيتي وشخصيات من حولي فأمسك بزمام الأمور. لكن الرفض كان يلازمني، عدم التصديق النابع من تجاربي السابقة. كنت أدخل البيت ممتلئة بالثقة التي تتسرب مني سريعًا في ظل الجفاء والإهمال، والقسوة. ربما لم يكن إيماني بما أدرس كبيرًا بما يكفي.

في الدورة التدريبية كنت أكثر تركيزًا على أنماط الحاضرين، جذبت انتباهي المشكلات التي حضروا بها، فهذه مشكلتها أن زوجها يتأفف، وتلك مشكلتها أن زوجها يعطي وقتًا أكثر من اللازم للهاتف والتواصل الاجتماعي الافتراضي، هذا مشكلته أنه يريد أن يستعيد حماسه، وذاك مشكلته أنه يريد أن يتعرف إلى نفسه. العديد من الأزواج حضروا فقط لمحاولة صنع جسور أمتن من التواصل.

كنت أجلس بينهم أستمع إلى جراحهم الصغيرة والسكاكين والسهام مرشوقة في ظهري. أعاني من مشكلات الزوجة والمطلقة في آنٍ. وعلى الرغم من كل ما كانوا يبدونه من سلام ومحبة وتفهم وذكاء اجتماعي، فإن واحدة دمرت جسور التواصل بيننا، عندما طالعت فستاني الواسع وسألتني من دون سابق معرفة، وعلى وجهها هذا التعبير الغريب من فرحة الفضول: ـ إنتِ حامل؟

حكت لي صديقتي التي زارت معالجتي النفسية بعد ترشيحي لها، أنها قصت عليها مشكلتها من دون تحفظ، وحكت عن قصة حب تورطت بها وتحاول جاهدة الإبقاء عليها كصداقة بعيدة، على الرغم من شعورها بأنه أمر شبه مستحيل، قالت لها المعالجة: ـ هذه خيانة زوجية.

جرحت الكلمة صديقتي مع يقينها أن ما وقعت به خيانة، لكنها كانت تحتاج إلى يد حانية، متفهمة، تنتشلها قبل المزيد من الغرق. لا إلى لسان يحكم عليها، المجتمع كله قد يحكم عليها فما الفارق في وجودها هنا؟ لم تكرر زيارتها.

لم أكرر زيارتي أيضًا، كما لم أنفذ خطتها. ليس بسبب الرفض والشعور باللاجدوى الذي يلازمني، لكن السبب هو أنني تركت كل شيء، واخترت أن أجلس اليوم في غرفتي القديمة على سريري الصغير فوق مرتبة غير مريحة، لأفهم وأستعد وأتحرر، لأقوم بالمزيد من الاختيارات والقرارات. أفكر في كل الغرباء الذين أقحمتهم في حياتي، وفي كل محاولاتي للبحث عن طريق، لجوئي إلى التنمية البشرية، إلى العلم، الطب، الحكي. لم أدرك قَطّ أنني لم أكن بحاجة إلى البحث عن طريق جديد، لكنني كنت بحاجة إلى البحث عن ضوء ينير طريقي.

حجرة الشيخ

كنت أجلس على الأرض ألملم دموعي وألمي وشتات عقلي، تقترب أمي وتجلس على طرف سريري، تتحول عاطفتها إثر انهياري من اللوم الصامت واليأس المتردد تجاهي، إلى التعاطف والرغبة في بذل روحها. تبدأ في مواساتي أنا التي لا أحب ولا أطلب المواساة، ثم تنهي الحوار دائمًا بجملة واحدة: «قربي من ربنا».

لم تكن تعلم كيف تربكني هذه الجملة. يربكني كمُّ الناس القريبين من الله المبتلين والمصابين الذين رأيتهم في حياتي، وكمُّ الناس البعاد عن الله الناجحين، المنعمين. الغرب الذي يضج بالتقدم والحرية والجمال، أصحاب الأموال والشهرة والمواهب، هل كل السعداء قريبون من الله، وهل كل الأشقياء بعاد عن الله؟ أعرف كم تبدو فكرة بدائية تفتقر إلى العمق، لكن أن تفتقد الفكرة العمق أفضل من أن تفتقد المنطق.

الغريب أنني حتى سنوات قريبة كان لديَّ وازع ديني، أحيانًا يزيد أو يقل، لكنه كان دائمًا هنا. وكنت على الرغم من هزائمي الصغيرة سعيدة وراضية، أُقبل على الحياة بقلب طفلة فرِح، متسامح. تركتني الراحة وهجرني الرضا تزامنًا مع بعدي عن الله، لا أعرف أيهما أتى أولًا. لم تكن علامات البعد تظهر من الخارج، الفروض كما هي، الطقوس والمظهر كما هما، لكن القلب بعيد، الدعاء بارد، الشغف ضائع، الهمة بالكاد تكفي الفروض التي تؤدى بشكل آلي، أصبحت مثل الناس، أزداد قربًا مع المصائب، لكن في الأيام العادية بعيدة ومنشغلة.

منذ دخلت عالم الكتابة والفصيل الأعظم ممن حولي يقحمون الدين بطريقة متشككة، البعض يتكلمون عن الشك والبعض متشككون بالفعل، غريب ربط الثقافة بالتشكك فيما أنزله الدين، يشبه ربط التخلف بالحجاب والسفور بعدم الحجاب، كان هذا التشكك هو ما يدعوني للتمسك بما بقي في جوارحي من دين أكثر، تغضبني بعض التفسيرات التي تقترب من السقطات الإنسانية والمجتمعية، أرجعها عادة لمفسريها وليس للدين.

في مرحلة التردد الرهيب قبل اتخاذ قرار الرحيل بيومين، اتصلت بي أمي وأملت عليَّ رقم هاتف، أخبرتني أنه لشيخ معروف بتعاونه، دماثته ورجاحة عقله. ترجتني أن أحاول محاولة أخيرة وأطرق باب الشيوخ قبل أن أتخذ قراري. كان شيخًا ذائع الصيت، برامجه في التلفزيون وعلى الراديو، بدا منشغلًا عندما اتصلت به، لروحه سماحة ومهابة مثل الصورة التي رسمتها في

خيالي، صورة رسمتها قبل سنوات طويلة لشيخ أحلامي، الذي أستطيع أن أستعين برأيه ومشورته في أموري الدينية والحياتية، رجل يستطيع أن يصنع فارقًا روحانيًّا في حياتي، أقول عنه في المجالس «شيخي فلان»، لكني أدركت مع الوقت أن حقيقة الدين هي في البحث الذاتي عنه وليس في سؤال وجواب، أو الاعتماد على شخص بعينه.

محادثة الشيخ كانت مربكة في بدايتها، لم يعطني الخيط لأبدأ، كنت بحاجة إلى خيالي لأرى ملامحه ووقع كلماتي عليها، حكيت بشكل عكسي، من النهاية حتى قبل النهاية بقليل، أنهيت حكيي بسؤاله عن قراري بالرحيل ومدى صوابه. لكنه لم يقتنع باختصاري وبدأ يسألني، لم تكن أسئلته تقترب شبرًا من توقعاتي، أكثر الأسئلة جرأة واقتحامًا لم تكن من طبيبي النفسي، ولا من معالجتي النفسية، ولا حتى من المحامي، لكنها أتت من الشيخ.

قال:

ـ متى جامعك آخر مرة؟ كم مرة يجامعك في الشهر؟ ما طول مدة الجماع؟

كنت أجاوبه باقتضاب، وضيق، ووضوح. انهزامي النفسي صوَّره لي كأنه طبيب فضولي مضطرة إلى إجابته. الغريب أنه لم ينتقده أو يؤاخذ أفعاله، كأنه خشي أن يحرج أخًا له في الرجولة، لكنه لم يخشَ أن يعرف أدق تفاصيله الجنسية مع امرأته! شعرت ببلاهة غريبة عندما سألني: ـ ماذا ترتدين في البيت عندما يعود زوجك؟

صمتُّ قليلًا لأستجمع سؤاله، قلت بسذاجة: ـ بيجامة.

قال:

ـ هذا خطأ منك. الرجل يريد أن يعود إلى البيت ليجد زوجته بقميص نوم.

قلت بسذاجة أكبر:

ـ لكن بيجاماتي حلوة!

ثم أذكر أنني أفقت في لحظة وقلت:

ـ عفوًا، لكن، ما علاقة ثيابي بمشكلتي؟

كنت أسمع عن الهاجس الجنسي الذي يرتبط برجال الدين فأنكره، لكن حديثي مع الشيخ أفزعني، كان يبحث في إجاباتي عن أسئلته المبتذلة عما يدينني به ويمارس به افتراءه عليَّ. كان بين المصيبة والأخرى مما أقصه عليه من هجر وقسوة وحزن وضياع، يقول: «لكن خطأك خمسون بالمائة»، «لكن اللوم عليكِ»، «بالتأكيد لم تكوني زوجة جيدة كفاية»، حتى الجملة المبتذلة ـ التي تقولها ربات البيوت ـ قالها لي: «الرجل مثل الطفل يحتاج إلى الدلع والطبطبة».

استهان بكل أحزاني، حتى رسائلي، التي كتبتها للشرح والعتاب فمزقها الرجل الذي اخترته، استهزأ بها الشيخ وقال لي: ـ أي رجل هذا الذي يتفاهم مع امرأته بالخطابات؟ هذا أمر لا مكان له بين الزوجين.

تحدث عن كل احتياجات الرجل وكالعادة أغفل كل احتياجات المرأة، بل أغفل كل ما يهين كرامتها ويسيء إليها، باعتبارها خُلقت لمتعة الرجل وإرضائه، وأي ظلم تدعيه هو نتيجة تقصيرها، ليس أكثر.

قلت:

ـ تقول إنني ناقصة عقل ودين، فلماذا وهو العاقل تدينني أنا؟

نسي الشيخ أننا حتى وإن تعادلنا في ظلمنا لبعضنا، فإن الله لم يُفضل أحدنا على الآخر، فلماذا يفعل هو؟

أنهيت اتصالي بالشيخ بسؤال محدد:

ـ أأرحل أم أبقى؟

قال الجملة التي انتظرتها منذ بداية الاتصال: ـ ابقَي حتى تعطيه فرصة أخيرة، تناقشي معه بهدوء، إن تمسك بكِ تمسكي به، إن لم يفعل فهو كاره، ارحلي وفوضي قريبًا للتفاهم على الطلاق.

لماذا كان كل الهراء الأول يا شيخنا؟ بلغت أمي بنتيجة اتصاله، كأنني أمنحها صك موافقة الدين على رحيلي، قالت: ـ تعالي.

قلت:

ـ ليس قبل أن أمنحه الفرصة الأخيرة.

قالت:

ـ عندي فكرة أفضل. قربي من ربنا.

حجرة الاعتراف

تقول أمي:

ـ قرري اليوم، بعد أيام سيأتي العيد وسننشغل بالتنظيف واستقبال الأهل.

تقول أختي:

ـ ماذا تنتظرين؟

يقول أخي:

ـ أنا معك. تعالي نفكر بصوت عالٍ.

لا يقول أبي شيئًا.

وأنا أجلس على الأرض في الصالة، تحت النافذة، أراقب ذرات الغبار وهي تتلألأ في بصيص نور يسقط فوق قدمَيَّ، ترقص رقصات مرتجلة، تتقافز في سعادة، على الأقل هي تعرف مصيرها. أشحن الأيام في قلبي وأنا أتطلع إلى قطع الأثاث الساكنة، مرت خمسة عشر عامًا وهي ما زالت كالجديدة، لم أكن أعرف أن الخشب أقوى وأبقى من الإنسان، القطع الخشبية قد تحترق بالنار، لكن الإنسان يتهشم ببضع كلمات. قطع الأثاث لم تعد ساكنة، إنها تسبح في ذاكرتي، أرى بينها شابة صغيرة تتقافز مثل ذرات الغبار، تكاد تمسها بحفيف رقتها، لا يشغل بالها شيء سوى الحب، ترقص، تضحك، تتلألأ حتى في الظلام، غير أنها لم تعرف مصيرها قَطُّ.

كنت أحسب الحزن. عندما نحسب الحزن نتوقف عن حساب الوقت، رزنامة الحزن مرقمة بالمواقف، مؤرخة بالكلمات المؤلمة، وأنا تعبت من حساب الحزن، بدأت أتآكل من حمضيته، بعوضته البغيضة تقرصني في قلبي، الظلام بدأ يهبط فوق رأسي، هاتفي يرن منذ أول اجترار للحزن، لا أضبطه على الوضع الصامت، ربما يُفزع رنينه الحزن فيتركني.

على مائدة السفرة سبع أوراق، وقلم أسود، وزجاجة مياه. همست لنفسي: «ابدئي».

قررت أن أكتب، الكتابة تنقذني، لعلني في كتابتي أجد الإجابات، لعلني أفهم، لعلني أنقذ ابنَيَّ، لعلني أجد طوق النجاة، أو رصاصة الرحمة التي تقضي على هذه الحياة.

اليوم الأول

على منضدة العمل القديمة، البسيطة، خمس فتيات حديثات التخرج، نضحك بصوت عالٍ، نسخر من المدير العام والمديرة المباشرة ومن كل الزملاء الرجال، نتهمهم بملاحقتنا ومعظمنا يتفنن في لفت أنظارهم. في هذا الوقت كنت أمر بانحسار موجة اكتئاب، كنت بدأت أكتشف أن أحلامي بقصص الحب السرمدية والنهايات السعيدة هي مجرد أحلام، لكن الحقيقة أن كل من تقدموا لخطبتي رجال غريبو الأطوار والأشكال، كل من صادفتهم لا يشبهون أحلامي ولا يقتربون شبرًا من قلبي. قلبي الذي ادخرته عمرًا طويلًا. الآن عليَّ أن أسير مع الركب وأقبل بالأفضل أو أمضي وحدي في الحياة في انتظار الوهم.

لكن مع التحاقي بأول عمل ثابت في حياتي بدأ الاكتئاب يغادرني. في هذا اليوم كنت منهمكة في أوراق أمامي، أحاول تعلم خطوات العمل، بغير جدية أو اكتراث. لاحظت هذا الشاب ينتظر على باب الغرفة. أعرف أنه لا ينتمي إلى المكان، فلزملاء العمل نظرات زائغة. لكن هو بدت على وجهه نظرة ثابتة وابتسامة قلقة، وعلى ثيابه لياقة نسبية. عندما خرجت من الغرفة مع زميلة لي لشراء بعض الطعام، نادى عليَّ، قال: ـ هل تسمحين لي بالتحدث إليك؟

فطنت فورًا إلى ما يود محادثتي به، قلت في نفسي: «قصة جديدة، يا أهلًا»، غادرت زميلتي وعلى وجهها غمزة وهمية رأيتها بحدسي.

لم أكد أسمع صوته من فرط هدوئه وطريقته المهذبة، قالها مباشرة: ـ أريد أن أتعرف عليك لأرتبط بك.

كان قد رآني مرة واحدة منذ أيام عندما سألني عن أوراق بخصوص العمل، وجاوبته بضحكة ورفعة كتفين، لكن هل هذه المرة أعطته الانطباع الكافي لأن يريد الارتباط بي؟ خاصة أنه ليس زميل عمل، فليس بإمكانه معرفتي عن قرب. كنت أدرك في نفسي أنني سأرفض، مثل كل المرات السابقة، لم يخطف قلبي مثلما تصورت مع الرجل الذي سأحبه. لكنني آثرت الرفض المائع هذه المرة، قلت: ـ فلنتعرف.

قال:

ـ هل أحضر إلى المنزل؟

قلت:

ـ لا، بل تعالَ إلى العمل، نتعرف هنا.

بعدها بعدة أيام رأيته وهربت منه، كنت أظن أنه سينسى، بعدها بأيام رأيته وحدست أنه يبحث عني، ظهرت أمامه وكان مشدوهًا، لشهور ظل مشدوهًا كلما رآني. هذا الاندهاش الذي كان يبديه تجاهي أسر قلبي. في هذه الأيام طلب مني بطاقة التأمين وطلب أن يُنهي مكاني هذا الإجراء الحكومي، وكانت أول مرة أجد فيها إنسانًا يريد أن يفعل شيئًا عني. تمسكه بي، تحمله مسؤوليتي، تعاطفي مع مشكلاته، رقة حبه، الورد، وأشياء أخرى جعلتني أستسلم وأسلم قلبي على الرغم من العلامات التي ظهرت وتجاهلتها، وعلى الرغم من بكائي وقلقي، وعلى الرغم من شيء بيننا كان يقول بشدة إنه عدواني وقاسٍ. الورد والحب حسما كل شيء.

«كنت مغفل، خدعتيني»، صار هذا هو تعليقه على تلك الأيام.

العام الأول

أصحو في منتصف الليل لأكتب أوراقًا عديدة، بعضها أتركه له وبعضها أمزقه وأرميه. كلها غضب وحزن ولوم، كتبتها بدموعي. لكن لأنني أكره الخصام ولا أعرف كيف أمارسه، كنت ألصق أوراقًا على الحوائط، أكتب على كلٍّ منها كلمة حب واشتياق ومصالحة. عدة كدمات في قلبي، ومع ذلك كان ما زال على عهده بالحب.

كدمة الطبخ: كل الأصناف الصعبة التي كان يتشاجر معي لأنني لا أصنعها. كانت الدهشة من نصيبي هذه المرة، أين الرجل الذي كان يقول: «الطعام آخر اهتماماتي». هل كانت كل أمنياتي بأن أطهو الطعام وهو إلى جواري يشاركني المرح مجرد خيالات؟ استبدل بها الصراخ والشجار والخصام الطويل، لأن طعامي لا يعجبه.

كدمة عدم التفاهم: كل شيء أفعله يضجره، كل كلمة يستهزئ بها، كل رغبة يتجاهلها، كل شيء ينتمي إليَّ يرفضه، كل تعلق به يسخر منه، كل وجود لي بين أهله يهمله. كل السيناريوهات السعيدة التي تصورتها لحياتنا كانت مجرد أحلام.

كدمة الأحلام: أين السهر وحدنا؟ أين السفر وحدنا؟ أين دائرة الأصدقاء؟ أين المفاجآت؟ أين الشقاوة والمعاكسات واليد التي تربت على ظهري في الطريق، والكف التي لا تتركني والحميمية التي ستملأ كل ركن في بيتنا؟ أين الصداقة والونس؟

كدمة الانسحاب: انسحاب المشاعر من قلبه. إن أسوأ ما يمكن أن تسحبه من إنسان هو خدمة قدمتها إليه بكامل مشاعرك، إيقاف هذه الخدمة حينها لا يعني إلا أن مشاعرك انسحبت بدورها. في هذا العام بدأ الانسحاب.

كدمة الضرب: أول شعور بالإهانة أتلقاه في حياتي، كان من الرجل الوحيد الذي فضلته على العالم.

كل ثوابتي في الحب سقطت، لكني كابرت وقلت لنفسي: «بل أحبه وأريده وأتحمله، سنعوض معًا كل شيء وسنصير أسعد زوجين في الوجود».

تائهة في نصف الطريق

أجلس بين صديقاتي تائهة، لا أشارك أحدًا بما أعانيه من جفاء غير مبرر. أعيد على نفسي كل يوم فضائله، المرات التي وقف فيها إلى جواري كأنني زوجته، حتى لو عايرني بها بعد ذلك وقال مثل كل الرجال: «أنا صنعتك». يقلن لي: «أصبحتِ دائمًا حزينة». كيف أفرح وقد أهانني هذا الصباح؟ إن نفسي هانت عليَّ إلى درجة أنني أصبحت أسير في الشوارع محنية الرأس. أنظر إلى محلات ثياب النوم بخجل كأنني لا أجرؤ على دخولها، والاختيار والمفاضلة وشراء القطع الصغيرة المغرية مثل كل النساء حولي. كبرت ثلاثين سنة.

في أعياد الميلاد القليلة التي أقمناها كنت سعيدة لأن بيتنا أخيرًا دخله الناس، ونحن الذين لا يطرق بابنا غير عمال الخدمات. لكنه كالعادة كان متجهمًا، في الفواصل داخل غرفتنا كان يتوعد ويهدد، على وجهي ما زالت آثار عنفه، شعرت كم أنا تعيسة. كم أنا فاقدة للقدرة على أن أعيش حياة طبيعية مثل أي امرأة. كان عليَّ أن أخفي كل شيء عن أهلي. حتى لا يحزنوا على حالي إن بقيت ولا يحرضوني على الرحيل وأنا لست مستعدة بعد. أخفيت عنهم كل شيء حتى لا يتضاعف الألم.

ثقتي بنفسي صفر. كل عدة أيام يجب أن يؤكد أنني فاشلة، أُم سيئة، وزوجة سيئة وامرأة لا قيمة لها. كنت امرأة بلا أرجل، ليس لديَّ سبيل للخروج، حتى في زيارات أهلي تكفلوا بإحضاري وإعادتي إلى البيت، كنت عبئًا على الجميع. كان يعايرني بأنني لا طموح لي، لا مهارات، لا مستقبل. كنت في نظره زوجة لخصت حياتها في زوجها وحتى لم تفلح في إرضائه. كنت أشعر بالضآلة والعجز. لكنني على الرغم من ذلك لم أفقد الأمل. عزيمتي كانت مثل الخميرة التي نتركها تتضاعف في الظل والكتمة.

بدأت تظهر علامات التعامل مع الشخصية السامة التي أدركتها فيما بعد: ١- ينتهز الفرص ليتصيد لك من الماضي ما يحكم عليك به في الحاضر.

٢- لا يدفعك لتتغيري للأفضل، لكنه يدفعك لأن تكوني شخصًا غيرك.

٣- لا يهتم بمشاعرك وأنت في أقصى درجات حزنك.

٤- يجبرك على أن تجعليه أولوية عندك خوفًا من غضبه، ولا يجعلك أولوية في حياته بالمثل.

٥- يرهبك فيجعلك تفقدين قدرتك على التواصل معه فتكتفين بالصمت.

٦- يعاقبك كل فترة على أمر لا تعرفينه بالتجاهل والجفاء.

٧- لا يعتذر، لأنه يؤمن بأنه لا يخطئ أبدًا في حقك، بل ويستهين بأذاك.

٨- له طريقة عندما يخطئ تجعلك أنت تشعرين بالذنب وتسعين لمصالحته.

٩- بالنسبة إليه: كل ما تفعلينه خطأ.

١٠- أهميتك نابعة من جودة ما تقدمينه من خدمات.

من قال إن الشخصيات السامة تشبه الأفاعي؟ إنها شخصيات ودودة ولطيفة تسير بيننا ولا تنفث سُمها إلا في وقت محدد لشخص محدد.

صبرني عملي على تجاوز هذه المرحلة، حتى أتى الوقت واحتاج إليَّ، وكعادتي، لبَّيت نداءه قبل أن يكمله، أصالحه من كلمة «حضري العشا»، كانت كفيلة بأن تنسيني كل الأحداث السيئة. تركت كل شيء ووقفت إلى جواره في مشروعه الجديد. موظفة بلا عنوان وظيفي، وبلا أجر، لعامين، أموالي نفدت وأصبحت أخرج وفي حقيبتي ما يكفي أجرة المواصلات فقط. لكن علاقتنا تحسنت لفترة، شعرت بأن أملي الوحيد الإنجاب لأعوض كل الأيام السيئة. حملت ولم أعد أستطيع مساعدته، فعادت كل الأمور السيئة تدريجيًّا.

«أنتِ لم تفعلي لأجلي شيئًا قَطُّ»، هكذا ظل يقول بعدها وحتى اليوم الأخير.

أمسك يدًا أفلت يدًا

بدأت فصول العودة، عودتي إلى نفسي. عندما انتقلنا إلى مرحلة جديدة في حياتنا، زادت المسؤولية بشكل سريع، لم يعتمد على لومي وتقريعي، لكنه بدأ في تسليمي المفاتيح، مفاتيح قيادة نفسي، ومفاتيح السيارة التي تحمل في طياتها مسؤولية توصيل المدرسة، ومسؤولية العمل البعيد الذي يمكنني من الصرف على نفسي على الأقل، ومسؤولية تمارين النادي، ومسؤولية المشاوير المتعددة. دفعني في هذا الوقت لأن أتحرر منه. شجعني على الكتابة، دعمني بالوقت والجهد والتغاضي.

كنت ممتنة، سعيدة، بدأت أحبه من جديد بشكل مختلف وأكثر تعقلًا. كانت آثار الحب مثل بقايا الجمر المشتعل في قلبينا، تشتعل بالقليل من الأكسجين وتكاد تنطفئ بالقليل من ثاني أكسيد الكربون. كنا نتأرجح بين الوجود لبعضنا والعدم من حياة بعضنا. كان دعمه المعنوي لي بأن أستمر في هوايتي بجانب المسؤوليات الجديدة، به جزء من ثمن المسؤولية. حتى تأكد له أن الأمر لم يكن كما تصور.

غرقت في هذا العالم حتى رأسي، لأول مرة أجد من يُقدرني ويعيد إليَّ ثقتي، لأول مرة أجد شغفي الحقيقي مع أناس لهم نفس الشغف، لأول مرة أذوق النجاح الذاتي. لم تعطلني المسؤوليات، لكنها مع الكتابة شتتت تركيزي. تزامن تشتتي مع اكتشافه المفاجئ أن الكتابة تعطل الوقت ولا تجلب المال. «أين الأعمال الفنية؟ أين الأفلام والأموال التي ستكسبينها؟ ما فائدة ما تفعلينه؟». لم يتفهم القيمة المعنوية للكتابة، لم يتقبل دخول غرباء إلى حياتي، سواء صحفيين أو كُتابًا أو قُراء. هو أيضًا تشتت، بين مناسبات يتباهى بموهبتي بها، ومناسبات يكاد يصرخ بها: «سئمت»، بدأ يشعر بفداحة ما دفعني إليه، عدت في نظره مجرد «فاشلة»، لكن هذه المرة بضراوة وغضب وهجر مستمرين.

بعد أن منحني رفقته في توقيع العقود وحضور الندوات، أصبح يتركني وحدي، يتجاهلني، يرفض مشاركتي، يعيب كتاباتي، ينتقدها بعيون شيخ وليس الرجل العصري الذي عرفته، يسقيني النكد سقيًا قبل كل الأحداث المهمة. كنت ذاهبة إلى الأوبرا لأول مرة في حياتي كمشاركة بقصة في إحدى الفعاليات الثقافية، عيناي حمراوان، ووجهي ممتقع وصوتي مبحوح، أتذكر فستاني الذي قذفه بكوب ماء حتى لا أخرج به، فأكاد لا أصدق نفسي. حذائي الجديد كان ضيقًا، يعتصر قدمَيَّ لكن اعتصار قلبي كان أقوى.

المرات التي كسر فيها اللابتوب، صراخه وغضبه المستمران لو وجدني أكتب. كل العصبية التي عاملني بها، ربما لغبائي في إدارة الأمور، ربما لأنني أخطأت باندفاعي في بعض الأحيان، ربما لأنه خشي أن أجد متعة بديلة تفقده قدرته على إذلالي، ربما لأنني لم أعد أصحو في منتصف الليل لأبكي وأكتب بدموعي، ربما لأنه وجدني سعيدة لسبب آخر غير وجوده الضنين في حياتي. ومع ذلك كنت أوائم أموري وأؤنب نفسي باستمرار لأنني أيقنت في داخلي أنني مختلفة، لست مثل قريناتي، لست الفتاة التي أرادها، وإن كنت لم أعرف في حياتي أي نوع من النساء يريد. تارة يقول: «الطاعة التامة»، وتارة يقول: «امرأة تقترح عليَّ الأفكار وتعطيني الحلول»، تارة يتمنى: «ليتك امرأة لعوب تعرف كيف تجعلني أنسى الدنيا وأنا معها»، وتارة يندب: «لم أتصور يومًا أن أتزوج امرأة شهوانية»، تارة يقول: «امرأة تهتم بكل شيء مثل أمي»، وتارة يتندر: «تدعين لي كأنك أمي!»، تارة يفخر: «لأنك بنت جميلة وأهلك محترمون»، وتارة يتحسر: «امرأة لا تستطيع أن تنفق على نفسها ولا أن تتصرف وحدها. لم يعلمها أهلها شيئًا».

«لم أتزوجك كاتبة».

هكذا اكتشف فجأة.

العام العاشر

سهرت في ليلة عيد زواجنا العاشر لأصنع فيديو كليب عن أيامنا معًا، كانت تغلبني الدموع في أثناء ترتيبي للصور واختياري لها، صورنا القليلة الأخيرة التي بلا عاطفة، وصورنا القديمة القليلة أيضًا التي راحت حميميتها، لم نعد كما كنا، هذه الحقيقة كانت تهز كياني. كنت أداريها بأغنية حلوة عن الاستمرار في المحبة، تقول في نهاية كل مقطع: يا رب تدوم أيامنا سوا

ويبقى ع طول جامعنا الهوى

فتسقط دموعي مرة بعد مرة. عندما شاهده بعد عودته من العمل لمحت دموعًا في عينيه، لكنه اكتفى بقول: «كل سنة وانتِ طيبة».

تبادلنا آخر هدايا لنا واحتفلنا احتفالًا بسيطًا، طلبت منه للمرة الألف أن نعود، هذه اللحظات التي تداهمني فيها الرومانسية هي نفسها لحظات الألم والندم في حياتي، كان رده الدائم على محاولاتي بأنه: «لا فائدة». لم أفهم قَطُّ لماذا يستبقي رجل امرأة وهو يرى أن لا فائدة من علاقتهما، ولا يحاول إصلاح ما بينهما. إن السبب الوحيد هو أنه يخشى الخسارة، المادية والمعنوية، ويخشى فشله في عيون الناس لأنه بذاته يرى أن الانفصال فشل، بينما رؤيتي الواسعة للعالم بعد انخراطي في القراءة هي أن الانفصال نهاية لنجاح وبداية جديدة لنجاح آخر. أما الاستمرار من دون جدوى فهو الفشل بعينه.

بدأنا نعيش على كوكبين، نتناول الطعام في ميعادين، ننام في ميعادين، بدأت أكذب لأتجنب المزيد من الغضب والبُعد، بدأت لا أعرف شيئًا عنه في المقابل، كان يهمشني منذ البداية مكتفيًا بأهله، لكن تهميشه لي أصبح أوقح وأفضح، بشكل علني ورسمي. تزامن تهميشه لي مع ازدياد عنفه الجسدي معي، مع أقل مشكلة يستخدم ذراعه ليكسر كرامتي ونفسي، ظنًّا منه أنه يردعني. لكنه في الحقيقة كان يمزق الخيوط البسيطة التي تربطني به، كانت قسوته تعلمني القسوة.

في هذه الأيام بدأت زيارة الطبيب النفسي، أدركت أن كتماني ومعاناتي لن تنتهي وحدها وأنني بحاجة إلى المساعدة، لكن المساعدة فضحت مكنون نفسي الحزينة، التي لم يشفع لها أي نجاح في العمل أو الكتابة أمام زوج قاسٍ، فانهرت أكثر.

«أنتِ أسوأ اختيار في حياتي»، الجملة التي أصبحت أسمعها كل يوم.

العام الأخير

سألتني موظفة البنك: ـ لماذا تطلبين عدم إرسال كشوف البنك إلى المنزل؟ إن له تكلفة غير مبررة.

قلت صاغرة: ـ لا أريد أن تصل خطابات البنك إلى البيت. لا أريدها أن تصل إلى زوجي.

كنت أقف في البنك وفي قلبي غربة شديدة، كيف أفتح حسابًا جديدًا لا يعرف عنه شيئًا؟ كيف أصبحت أخفي عنه كل أموري بعد أن كان مشورتي ورفيق المشاوير الجادة المهمة؟ أصبحت أخاف منه، لا أعرف ما في رأسه، ما يضمره تجاهي. في أثناء تنقلي بين أفكاري الكئيبة وجدته أمامي في البنك، سأل كل منا الآخر: ـ ماذا تفعل هنا؟

ولم نجِب بعضنا، كنا نعرف ضمنيًّا أننا أصبحنا غريبين، لم يجرؤ أحدنا على أن يلوم الآخر بأنه أخفى عنه ما أخفاه هو بدوره، لذلك صمتنا، أنهينا الإجراءات وغادرنا مثل أي زميلين قديمين التقيا صدفة.

لولا الكتابة لكنت أصبحت مثل شخصية منى في فيلم «زوجة رجل مهم»، امرأة مهزومة في رومانسيتها تمامًا، تعيش على أطلال حياتها القديمة، تسمع الأغاني التي تذكرها بأنها كانت تعيش ذات يوم فرحة، نضرة، أرضًا خصبة للحب. قبل أن تنضب تمامًا وتتشقق أرضها وتتغضن كل أحلامها البسيطة في حياة هادئة مع رجل تحبه وتشيخ معه. يمزقني يوميًّا سؤال ينخر في رأسي من دون إجابة: «هل سأكمل حياتي بهذا الشكل؟»، الكتابة وحدها هي ما أخذت بيدي لأقاوم السقوط، أو أنها كما اتضح لي فيما بعد، كانت مثل المخدر الذي يمحو أثر الألم مؤقتًا، غلاف براق وضحكة عذبة تخفي وراءها الكثير من العذاب.

في إحدى الغضبات تركت البيت وليس معي سوى ثيابي، على اعتبار أنه سيأتي ولو لمرة واحدة في حياته ليصالحني. لكنه لم يأتِ. بعدها بأسابيع كنت أجلس في سريري الصغير بجوار طفلَي النائمين في غرفتي القديمة، أطالع في الظلام هاتفي وأعيد قراءة الرسائل التي كان يتوعدني فيها بأنه سيدمرني، سيسيء لسمعتي، سيعيدني كما عرفني. قلت لنفسي: «ليتك تعيدني كما عرفتني... يا ليت».

كنت أتساءل، كيف لرجل ينام إلى جوار امرأة، يعاشرها، يتخذها أمًّا لأولاده، يأمنها على نفسه ويرهن نفسه لحمايتها، كيف له أن يفكر في الإساءة لسمعتها؟ أين ذهب الرجل الذي أحببته؟ الرجل الذي قال: «دعيني أحتويكِ».

قلبي لم يعطب بهجره الطويل، ولم يضجره إهماله وعدم سؤاله، لم يعد يتألم من قسوته، لأن القسوة تؤلم عندما تأتي ممن تحب، ما أعيا قلبي هو حماقة قلبي، أمله الزائف، سيره وراء السراب، انتظاره لما لن يأتي أبدًا، كان يجب أن أضع نصب عيني حقيقة أننا تغيرنا، فقدنا رصيدنا في قلوب بعضنا، يجب ألا ينتظر أيٌّ منا شيئًا من الآخر، لكن يجب أن نُبقي على علاقة جيدة حتى يتسنى لنا أن نربي طفلَينا في جو صحي. يجب أن نحترم بعضنا البعض على الأقل.

لكنه لم يحترمني قَطُّ.

اليوم الأخير

كنت نائمة مثل جثة على السرير، علمتني القسوة التي سقاها لي أن أخلد للنوم مبكرًا حتى أهرب من سماع دعائه عليَّ، من إهاناته اليومية لي، ضجره من الطعام، من البيت، من زواجنا الذي يلعنه كل يوم، من الحياة التي أصبحت سوداء بوجودي، أهرب من تجهمه في وجهي الذي يصيبني بالغثيان. لكن لسوء حظي كان النوم يتآمر عليَّ، فلا يأتيني إلا بعد أن تصلني دعواته عليَّ. أصبحت أعاني فوبيا التمتمة بالدعاء، أكاد لا أسمعها حتى أشعر أن أحدهم يتمنى لي الشر.

في هذا اليوم تعمدت ألا أترك له الطعام، كنت قد وصلت إلى أقصى مراحل الاستياء من كوني امرأة للطبخ وأعمال البيت فقط، أحاول أن أرتق الثقوب في حياتنا وحدي، ومع ذلك تصلني من طفلَيَّ إساءاته اليومية لي في غيابي، كل ما كان في وسعي هو تلك المخاطرة العظيمة بأن أمتنع عن صنع الطعام. إنه تمرد الضعفاء، أو غير المبالين.

سمعت أكثر صوت يقبض قلبي، صوت مفاتيحه، بعد دقائق كان يقف عند رأسي، أزاح عني الغطاء وصرخ في وجهي: ـ أين الطعام؟

مرت دقائق هي أسود دقائق بيننا، أهانني بكل الطرق، أهان أنوثتي، أهان كرامتي، حتى إنسانيتي أهانها، اتهمني بأنني سبب شقائه، سبب بؤسه، كان معميًّا تمامًا عما سببه لي من حرمان وتعب وشعور بالنقصان، تبادلنا أسوأ الاتهامات وأقساها، كانت نيته مبيتة لإيذائي، لتلقيني درسًا آخر في أنني يجب ألا أعانده وأتمرد عليه، كان يصطنع مثل هذه المشاجرات ليعطي لنفسه عذر هجري وإهمالي، لكن هذه المرة كانت نيته الإيذاء الجسدي.

كنت تحت يديه، يضربني على رأسي، حكى لي الطفلان أنني كنت أصرخ وأسب، بينما كنت أشعر أنني أتلاشى، أغيب عن الصورة التي رسمتها لنفسي، كان الظلام يسقط على عينَيَّ، لم أشعر بشيء إلا بسماعي نفسي وأنا أقول: ـ مش شايفة... مش شايفة.

تركت القلم عند هذه النقطة، جسدي كله يرتعش ووجهي مغطى بالدموع، لن أستطيع أن أضيف جملة أخرى. السبع ورقات امتلأت وروحي فرغت، «هذا يكفي»، همست لنفسي. كان كل شيء جامدًا حولي، لا عيون، لا همهمة، دقت الساعة بصوت مسموع على غير عادتها، كأنها تنبهني أن وقتي انتهى. وضعت

الأوراق في النيش بجوار الورد الجاف، وسرت في البيت تائهة لا أفكر في شيء حتى عاد طفلاي. قالا لي: ـ تبدين تعيسة، هل آذاكِ مرة أخرى؟

ـ ماما، يجب أن نرحل، نخاف عليكِ.

قلت:

ـ كل شيء سيتغير لو رحلنا؛ المدارس، المصروف، الفسح، الطلبات. هل ستتحملان؟

ردَّا بيقين تام: ـ سنتحمل.

لم تكن عادتهما أن يحرضاني على الرحيل، كانا دائمًا يهابانه. اطمأن قلبي لأول مرة منذ أسابيع.

الطريق إلى الخروج

فؤاد أم موسى

كانت أول جملة قالها صغيري عندما سمع صوتي بعد الغياب المتفق عليه بيننا:

ـ ماما، أنا أصبحت أصلي لأدعو الله أن أراكِ مرة أخرى.

كان لديَّ قلب وجل، يغفل، يرى، يتعلم، يقسو أحيانًا، يحنو غالبًا، يرتاب ويتعذب ويشعر أكثر من اللازم. تركني ورفرف أيامًا عديدة ثم اندفن في صدري أيامًا أخرى. كنت أسمع لفظة «فؤاد» فأتهمها بالقدم وانتهاء الصلاحية اللغوية. لم أدرك قَطُّ أن لديَّ فؤادًا إلا عندما مسَّ الاستغناء ولدَيَّ. قرأت يومًا أنه عند الطمأنينة والهدوء والرضا اسمه قلب، وعند الشدة والمصائب اسمه فؤاد. كان هذا فؤادي.

عندما بدأت لعبة الاستغناء أفلتُّ الكثير من الأيادي. يد الزمان أفلتُّها عندما توقفت عن اجترار ذكرياتي ومنحها دور البطولة عنوة في مسرحية حياتي الهزلية، أفردت لها مساحة ضيف الشرف حتى يتسنى لي أن أعيش الواقع وأتخذ القرارات التي تناسبه، من دون أي مؤثرات. وأفلتُّ يد المكان عندما تركت بيتي الذي نعمت فيه بالاستقرار والامتنان الزائف للحياة، وإن كنت لم أنعم بالأمان. وأفلتُّ سيارتي، أشيائي، كُتبي. وأفلتُّ يد الحب قبل كل شيء عندما لم أجد منه إلا القشرة القاسية والطعم المر. لم يخطر ببالي قَطُّ أن اللعبة ستقودني إلى مراحل أصعب تفطر القلب.

كنت أواسي نفسي وأقول إنني مضطرة، والاضطرار هو أول طريق الاستغناء وهو الذي جعل أم موسى الرسول تضع رضيعها في تابوت وتلقيه في البحر بوحي من الله، خوفًا عليه من القتل على يد جنود فرعون. أتصور كيف كانت حال الأم التي يعصف بها الخوف والتخبط والحاجة إلى نجدة رضيعها، كيف كانت حالها عندما ألقت بيدها قطعة من روحها في مكان يتسم بالغدر والخطر. كيف وجدت نفسها في لحظة عجز، أطرافها مكبلة وظهرها إلى الحائط، لا تملك إلا أن تُسلم ابنها إلى الهلاك حفاظًا عليه من هلاك أعتى.

في تلك الأيام لم يوجز حالي سوى جملة قرآنية واحدة معبرة وموغلة في المشاعر «گ گ گ گ ں»، ربما فقدت جزءًا من ذاكرتها من هول الموقف، أو أن قلبها فرغ تمامًا من المشاعر على أشكالها لأنه لم يعد مشغولًا إلا بابنها. أن تضحي بروحك أسهل من أن تضحي بالقطعة النابضة فيه، التواقة للنمو والامتداد، القطعة التي تخصك وهي خارج جسدك، لا مجال لدرء الأذى عنها،

فما بالك إن تسببت أنت في الأذى لها. إن أقسى لحظة في حياة الأم أن تصوغ أولويات الأذى الذي يمكن أن يلحق بابنها.

كان عليَّ أن أختار ما بين حياتهما معي في خطر الهجوم والنقص والتحدي والصعوبات المادية والمعنوية، وحياتهما بعيدًا عني في خطر الاحتياج العاطفي والشوق. اخترت أن يتعلما في مدرستهما ويناما في غرفتهما ويبقيا على حياتهما التي تعودا عليها لكن من دوني. كان عليَّ أن أربط على قلبي وأتركهما ولو لفترة، بعد الكثير من الذل والمعاناة التي تحملتها لأجلهما. كان عليَّ أن أواجه البُعد مرة أخرى. بحركة مختلفة على رقعة الشطرنج، بعد أن تقهقر جيشي كان عليَّ أن أقبل بموت الوزير حتى أحمي الملك.

فؤادي خاوٍ، لا أجد به ذرة إحساس، أقرر كأنني غيري وأتصرف كأنني الرجل الصفيح بطل رواية «ساحر بلدة أوز»، يرى ويسمع ويفكر ويفهم ويتكلم ويضحك ضحكات معدنية آلية، يقرأ ويكتب ويسلي من حوله، لكنه لا يشعر بشيء، لا يشعر حتى باحتياجه إلى قلب، هكذا أصبحت من وقت قراري بترك طفلَي في الضفة الأخرى من عالمنا. لحظة الوداع والدموع تختلط وتجيش في صدورنا وتنخر في قلوبنا، هي ذاتها لحظة أن منح الساحر الرجل الصفيح قلبًا زجاجيًّا أزرق فوجد نفسه فجأة خائر القوة، لا يتحكم في جسده، يتألم بشدة ويبكي أنهارًا، لم يعد إلى حياته إلا عندما أخرج قلبه من صدره وألقاه بعزم ما فيه لأبعد مسافة ممكنة، ليتشظى إلى آلاف الشظايا التي ارتوت بدموعه، ونبتت من كل واحدة منها زهرة جارديني زرقاء، وأصبح هو مثل الحجر لا يشعر بشيء، هذا ما تمنيت أن أكونه لكنني لم أستطِع.

فقداني لوجودهما جعل حياتي صامتة، باهتة، بلا أحلام، كل الوقت الذي تمنيته في وجودهما أصبح أمامي، لكنه بلا معنى، كل الهدوء الذي رجوته أصبح حولي لكنه بلا فائدة، الازدحام داخلي، الشوق والحزن والخوف يحتشدون بي، أصواتهما الصغيرة، طلباتهما المستمرة، مقاطعتهما المحببة، مراقبتهما اللطيفة، وجودهما الصاخب حتى لو كانا نائمين، لقد فقدت حياتي خلفيتها، أصبحت معلقة في الهواء بلا أمل. ليس لهما أخت تتعقبهما لتأتيني بالخبر، ليست لديَّ معجزة الرسل، لست أم موسى وإن كنت أملك فؤادًا. ليس لديَّ إلا إيماني الذي أجاوب به صغيري عندما يسألني بضجر وقلق: «هترجعي إمتى؟»، فأجاوبه من دون أي دليل: «قريب جدًّا هنرجع مع بعض».

استعدتهما بعد ثلاثة أسابيع لنعيش معًا، وتحملت كل العواقب بمنتهى السعادة.

البيت الذي لن أموت فيه

«لا أريد أن أموت وحيدة»، الجملة التي جعلتني أتراجع مرارًا. كنت بالقرب من بيتي القديم الذي يقترب من كل ما أعرفه من الحياة، أو الذي عرفت من خلاله كل شيء عن الحياة. كنت منهكة تمامًا، بعد العديد من المشاوير، نظرت إلى الشارع الصغير الذي يؤدي إلى البيت فانفرطت دموعي. هذا هو الطريق الذي خضته لخمسة عشر عامًا. هذا هو الشارع الذي أشعر معه أنني وصلت إلى البيت، وأبدأ في فك حجابي وإراحة قدمَيَّ في الحذاء عوضًا عن شدهما طوال اليوم. هذا هو السبيل إلى المكان الذي أجد فيه راحتي على أريكتي المفضلة، بعد أن أستحم في حمامي المفضل وأجلس دافئة مستكينة. الآن، أمامي المكان الذي عرفته كبيتي لخمسة عشر عامًا ولكنه غريب عني، لن أراه مرة أخرى، لن أنظفه، لن أطبخ فيه، لن أنام فيه. أو أنني أنا الغريبة عنه.

أجلس الآن في السيارة في شارع قريب من البيت أنتظر اتصالًا من أهلي يخبرونني فيه أن إنزال العفش من البيت انتهى. إن أكثر لحظة خشيتها منذ رحلت هي لحظة نزول العفش منه. لم أشأ أن أغيِّر أي تفصيلة فيه، كنت أريده في ذاكرتي تمامًا كما هو، لم أشأ أن أراه صوب عيني في مكان آخر لا يشبهه ولا يناسبه مثلما ناسبه مكانه. لا أريد أن أجلس على نفس الكرسي الذي جلست عليه وأنا أتحدث إلى زوجي أو أشاغبه أو أسمع شكواه أو أبكي أمامه. لا أريد أن آكل على نفس السفرة التي احتفلنا عليها بكل مناسباتنا وقدمنا عليها فرحتنا، حتى لو كانت مؤقتة.

فجأة هجم عليَّ وأنا في مكاني القصي رجلان، هما بواب العمارة وسائق سيارة النقل، تحسبت لمجادلة على حساب النقل، لكن الذي أدهشني هو أن السائق حدثني مباشرة في الصلح مع زوجي. يبدو أنه الوحيد الذي فعلها من بين كل من عرف ما بيننا أو تدخل فيه لأي سبب. هذا السائق البسيط بكلماته العفوية هو أول من سمعت منه مبادرة صلح. صحيح أنها كانت بلغته وحسب مفاهيمه البسيطة عن الزوج والزوجة، لكن يكفيني أنها كانت محاولة صادقة وحقيقية، وددت أن أقول له: «ليتك خالي أو عمي أو شيخي، ليتك أي رجل مهم في حياتي»، لكنني عوضًا عن ذلك رفضت بإصرار وخوف، الإصرار عرفت سببه أما الخوف!

ربما كان الخوف من أن تأتي اللحظة التي يتحالف عليَّ العالم فيها لأعود إلى الرجل الذي عذبني بالحب والكره. كنت مصعوقة من أنني أتحدث عن أموري الشخصية لسائق سيارة النقل، لكن شيئًا في حديثه الذي فهمته بصعوبة كان يقول إن الطيبة موجودة في هذا العالم وبلا أي شروط. انتهى الحوار ببساطة،

عندما أخبرني عن اهتمام زوجي بالعفش وأن ينزل سليمًا، وقلقه وحزنه على نزول العفش. قلت لنفسي ها هو الآن يقلق ويحزن على نزول العفش، الرجل الذي لم يقلق أو يحزن على نزول زوجته مهانة ومكسورة من البيت بلا رجعة.

لم تجنبني جلستي القصية بعيدًا عن المشهد الانهيار الكامل الذي فاجأني عندما بدأ العمال في تحميل العفش إلى مكانه الجديد. كانت أسبابي كثيرة وواضحة: يذكرني العفش بكل ما تمنيت أن أنساه؛ اللونان البني والذهبي في الأثاث هما ما تمنيت ألا يدخلا حياتي مرة أخرى أبدًا، العفش كلاسيكي وأنا كرهت الكلاسيكية، العفش كبير وكل مساحاتي الجديدة صغيرة، العفش انجرح وكنت أتمنى أن يبقى في مكانه بلا خدوش. يكفيني من الخدوش ما في روحي.

ثم هناك أسبابي غير الواضحة: العفش ينتمي إلى بيته ولا ينتمي إلى هذا المكان، الانتماء مهم. لماذا لا يفكر الناس في انتماء الأشياء وليس فقط البشر. أو، لماذا أفكر أنا وكأنني أنتظر فرصة عودة! هذا الشعور خانق ومؤذٍ وحزين. لماذا أخاف أن أموت وحيدة؟ لماذا أفكر دائمًا في البيت الذي سأموت فيه. أذكر عندما سألتني أمي لماذا أبالغ في اختيار سرير جديد لي بينما أشتري أسِرة رخيصة للصغار، قلت لها:

ـ لأنهم يومًا ما سيتركون أسِرَّتهم، أما أنا فهذا هو السرير الذي سأموت فيه.

كانت هذه المرة الثانية التي أشعر فيها بوقع الانفصال، قويًّا وحادًّا. يمزق قلبي بسكين صغيرة ويعيد إليَّ كل مشاعر الاكتئاب، لماذا لم يستجِب أهلي لرفضي فكرة العفش؟ أنا لم أرِد أي شيء من حياتي القديمة، لم أرِد أي شيء مادي. ما أضاعه الحب لن تعيده المادة. كيف رضخت لفكرة لم تنبع من رأسي؟ ربما كانت هذه هي لحظة التنوير التي عرفت فيها أنني يجب أن أتوقف عن أن أعيش كأنني مُسيرة في حياتي، لمجرد أنني واقعة في الكثير من القرارات والاختيارات. يجب أن أبدأ في اتخاذ قراراتي كلها حتى أتفهمها. كان عليَّ أن أدفع ثمن هذه اللحظة بوجود ذكرياتي أمامي دائمًا، ضخمة وكلاسيكية وبني في ذهبي.

القائمة السوداء

من قال إننا نرثي من رحلوا فقط؟

في رثاء ما تبقى منه

في كل مرة أقف أمام ثلاجة السوبر ماركت، أقول للبائع ما حفظته عنه: ـ جبنة رومي قديمة، وأدوقها الأول.

أحاول تذكر النوع الآخر، كنت أتصل به كل مرة:

ـ اسمها براميلي ولا استانبولي؟

في أوقات الغضب والقطيعة التي يختارها دائمًا، كنت أنتهز الفرص وأتصل به لأقول السؤال نفسه: «اسمها براميلي ولا استانبولي؟».

في كل مرة لا بد أن أتأكد بعد نزولي من السيارة أن الأبواب مغلقة، الأبواب التي تغلق أتوماتيكيًّا، هذا «التشيك» اللعين الذي لم أتخلص منه، حتى في المرة الأخيرة، التي كنت أعرف أنني لن أعود بعدها، نزلت من سيارته وأتممت على بابي. بابي الذي لن أفتحه ثانية. في كل مرة أشتري الشاورما: ـ من غير دهون من فضلك عشان عندي دهون عالية.

كنت أقولها عوضًا عنه، لم أعانِ من معدل الدهون قَطُّ، فلماذا أقولها الآن؟ وكل مرة يتذمر فيها السائس مما أعطيه له، أقول: ـ لو مش عاجبك هات.

أنا التي كنت أرفض هذا التصادم وأنتقد قسوته على البسطاء، الآن أقولها بمنتهى الرغبة في التصادم.
كل مرة أشتري فيها الحليب، أمد يدي إلى أعمق عبوة، أقرأ تواريخ صلاحية كل شيء، أنا، التي لم تهتم يومًا بالتواريخ ولا بالصلاحية، الآن أهتم، الآن بعد أن انتهت صلاحية حبي له.

لتنسى يجب أن تكون ذاكرتك قوية. هذه الحقيقة التي اكتشفتها بعد العديد من محاولات النسيان وحرق الأعصاب والانهيارات، وبعد أن كتبت قصصًا وروايات كثيرة تكاد تصرخ، لا لشيء إلا لأنسى، وبعد أن قرأت العديد من الكتب عن تخطي الأزمات العاطفية. سنوات من التعب والتشتت وكل ظني أنني معذبة لأنني لا أنسى. حتى ظهر لي أن أزمتي الحقيقية كانت أنني أنسى.

كنت أتلقى الرصاص في قلبي فيذوب في دمي ويتلاشى، ألحم الثقوب بصبري وأملي، مع الوقت أصبح قلبي مهترئًا، ينفذ إليه الحزن والغضب بسهولة، تتملكه الرغبة في الخلاص بأي ثمن، كان يجب أن أعيد إليه قوامه وقوته،

البديل عن حماية القلب من الرصاص هو أن نسد ثقوبه بالرصاص نفسه، كان عليَّ أن أبقي على الرصاص في قلبي.

في اليوم الذي بدأت فيه كتابة القائمة السوداء، كنا ساهرين أمام أحد الأفلام، صامتين، بيننا جبال من البرد والتجاهل، غفوت كعادتي في هذه المساءات، عندما أفقت وجدت نفسي من دون أي مقدمات أسأله بصوت قادم من أحلامي: ـ لماذا لا تحبني؟

رد:

ـ ولماذا أحبك؟

إجابته التي لم أناقشها آلمتني، هذا الألم اليومي الذي يمر وأنساه، عندما تجدني زميلات العمل عابسة، متعبة في الصباح، يكون ردي: «ربما لم أنَم جيدًا». كل ما يبقى في ذاكرتي أن هناك أثرًا من ألمٍ ما.

كنت قبل زيارة طبيب النساء في أثناء متابعة الحمل أشعر بالكثير من الأعراض التي تعطل حياتي وتؤلمني، وبمجرد أن أجلس أمامه ويسألني عما أعاني منه تكون إجابتي: «ولا حاجة، كله بخير». في المدرسة والجامعة كانت عندما تأتيني الفرصة للسؤال عن الأمور التي تعذبني في فهمها كنت أقول: «أستطيع أن أفهمها وحدي. كله تمام». الإنكار الذي يتبع النسيان أو النسيان الذي يؤدي إلى الإنكار، كانت هذه هي آفتي وسبب عدم شفائي.

في هذا اليوم فتحت ورقة ملاحظات على هاتفي وكتبت:

القائمة السوداء

بتاريخ xx/xx/xxxx «وأحبك ليه؟»

بتاريخ xx/xx/xxxx «أنتِ أسوأ ما حدث في حياتي»

بتاريخ xx/xx/xxxx «ليس لكِ أي أهمية»

بتاريخ xx/xx/xxxx «أنتِ خنفساء لا فائدة منها»

بتاريخ xx/xx/xxxx «أنتِ حظي السيئ»

بتاريخ xx/xx/xxxx «لا أنوثة فيكِ»

بتاريخ xx/xx/xxxx «تزدادين وزنًا من الطعام الذي أشتريه بمالي»

بتاريخ xx/xx/xxxx «في داهية»

بتاريخ xx/xx/xxxx «لو كنت فقط تزوجت غيرك!»

بتاريخ xx/xx/xxxx «تربية قذرة»

بتاريخ xx/xx/xxxx «هشششش... اخرسي»

كل يوم أضيف الجديد من السواد، عندما تمر أسابيع هادئة أفتح القائمة وأقرأها حتى أبقي على الرصاص في قلبي، حتى لا أنسى، حتى أشحذ نفسي بعدم الغفران. «الغفران» أغرب كلمة في الوجود، صفة إلهية لن تكتمل إلا مع باقي الصفات الإلهية من القوة والتجبر والإذلال، صفات لا يمكن أن يمتلكها بشري لأنه لن ينصف بها الناس ولا نفسه.

أصبحت مع كل نسيان أفتح القائمة وأعيد قراءتها، مع كل مرة أقول فيها لأمي أو لصديقة أو لنفسي إن كل شيء بخير أفتح القائمة، في كل مرة أعود فيها لأضحك معه بعد أيام من الضغط العصبي والشعور بالمهانة كنت أفتح القائمة وأقرأها لألزم الحقيقة. لم تضعفني وتبكيني وتفتت قلبي كما تصورت، كانت تعيدني تمامًا إلى الأرض التي أقف عليها بين مستنقعات الخطر، حتى لا أتوهم أنني في أمان، حتى لا تأخذني طفولتي وراء الفراشات والزهور لعالم وردي، بينما هي مجرد نظارة وردية أخفي بها عن نفسي حقيقة العالم الرمادي الذي أعيش فيه.

مقاومة الإنكار على الرغم من صعوبتها، دفعتني إلى أول طريق الاستغناء، حتى أستغني كان يجب أن أتذكر كل شيء، كل كلمة وإحساس، لا أن أوثق شعوري وحسب، لكن أوثق الكلمات والقضمات والرصاصات، حتى إن اضطررت يومًا أن أقف أمام من يهمه الأمر لأدلي بعذابي، لا أردد أن «كل شيء بخير».

قائمة المحبة

كل الانتصارات كانت من أجل المحبة. الأذى والألم كانا مثل السياج يحجبان عني الرؤية والإحساس بالنور والطيب، صاحب ألمي إحساس بتأنيب الضمير والهزيمة ومعاداة العالم وتمني الخلاص، دائرة مغلقة من العذاب. في معركتي للخروج من دائرة العذاب وتخطي السياج احتجت إلى أيادٍ تنتشلني. أهمها هي يد المحبة.

في أيام الانهيار كنت أقترف خطأ كبيرًا بالاتصال بأصدقاء من الدرجة الثالثة لبثهم معاناتي، كانت أيادي وهمية ظننتها ورقة الانتشال، كلمات الطبطبة، نصائح النساء، الانفعال الوقتي، الكلام المرسل، كل هذه الأشياء المؤقتة كانت تعطلني عن الخروج. بل وتتسبب لي في حرج الاعتراف وانقطاع أواصر الود مع كل من عرف ورأى شروخي. في أحد هذه الأيام قلت لصديقتي الأقرب بيقين حقيقي: ـ لم يحبني أحد قَطُّ، لم يهتم بأمري أحد. أنا وحدي.

سألتني:

ـ هل يهتم بأمرك أبوك وأمك؟

قلت:

ـ نعم.

ـ وابناك؟

ـ نعم.

ـ إذن معنا أربعة. من أيضًا؟

ـ أخي وأختي.

ـ ستة. صديقات العمل؟

ـ سلمى وأمل ودواليا ومنى.

ـ عشرة. صديقات الدراسة؟

ـ ياسمين ورضوى ودينا.

ـ ثلاثة عشر. أصدقاء الكتابة؟

ـ أحمد ومصطفى وإيمان وهدى وشيماء وحنان ومروة ولبنى.

ـ واحد وعشرون. هل ممكن أن تكتبيهم؟

كتبت الأسماء في أجندة وأضفت صديقات عمل قديمات ما زلت على اتصال بهن، ثم أضفت صديقة تشاركني في حضور الندوات ولنا نفس الاهتمامات، ثم كتبت أولاد خالي الذين لا يتأخرون عن مساندتي، ثم صديقاتي من أمهات أصدقاء أولادي، كنت أكتب وتذكرني صديقتي من أيام الطفولة بالأسماء التي قد أضيفها، حتى وصلنا إلى قائمة من تسعة وأربعين اسمًا، قالت: ـ وأنا الرقم خمسون.

على طريقة «إليزابيث جيلبرت» في روايتها الجميلة «طعام صلاة حب»، بدأت صديقتي تذكرني بإضافة زملاء لا تجمعني بهم علاقة وطيدة لكن تجمعنا معزة، ثم البواب وزوجته وعامل الكافيتريا وبائع السوبر ماركت الذين يقدرونني كثيرًا، ثم أجدادي الراحلين الذين بالكاد أذكر محبتهم، ثم مشاهير أحبهم، أدباء وفنانين، تخطت القائمة المائة، كنت قد بدأت أستعيد ثقتي كاملة، قالت: ـ كل هذه الأسماء معكِ وتحبك وتساندك. أنتِ لست وحدك.

محبة الناس التي أحتاج إليها لا تشبه النصائح والطبطبة وكلمات التنمية الذاتية والبشرية، فكل تلك الأمور لا تتعدى كونها كلمات يلقيها الباعة الجائلون في الشوارع راغبين في بيع المحبة، لكن من دون حماس حقيقي، هذا لا يعني أن المحبة التي يحتاج إليها المحزونون، المحتارون هي عطاء وتضحية. نحتاج في الحرب إلى من يسلموننا قلوبهم ومشاعرهم، وليس إلى من يحارب بدلًا منا، نحتاج في المناصب القيادية إلى من يختارنا ويبارك وجودنا، وليس إلى من يقود بدلًا منا، في المباريات نحتاج إلى هتاف المشجعين وأغانيهم وحماسهم وليس إلى مهاراتهم، كانت المحبة هي جمهوري الذي يدفعني بأمان لمبتغاي، من دون أن يقدم شيئًا ملموسًا.

عندما شعرت أنني لست وحيدة تضاعفت ثقتي، وأصبحت أكثر استعدادًا لأن أنتف ريشي القديم.

متلازمة: لكنه يحبني

عمي مات.

صديقة لي ماتت.

غيرت عملي.

ابننا الصغير ترك السباحة ويتدرب على كرة القدم.

ابننا الكبير يحب.

ارتديت نظارة طبية.

بدأت الماجستير.

خلعت ضرسي.

تسألني صديقتي: ـ لماذا يؤثر بك غيابه وأنا أعرف أنك لم تعودي تحبينه؟

أقول:

ـ لأنه كان في الخلفية دائمًا. مكان العودة والبقاء. كان أخي! هل تفهمين؟

في أثناء ثورة ٢٥ يناير في ٢٠١١، انقسم الناس إلى مؤيد ومعارض، وانقسم المعارضون إلى معارض مثقف يعارض بسبب ضبابية الموقف، ومعارض مُستفيد ستتأثر مصالحه بتغيير النظام الحاكم، ونوع ثالث من المعارضين من الطبقة المتوسطة أو من المُعدمين، الذين عانوا من الفقر والجهل والمرض، واضطروا إلى السفر والبيع والتنازل عن أساسيات الحياة من أجل العيش. النوع الثالث من المعارضين كانوا أكثر الناس تضررًا من النظام الفاسد آنذاك، ومع ذلك كانوا أكثر الناس تمسكًا ببقائه.

بدأ رواد الفيسبوك حينها في نشر مقالات عن متلازمة ستوكهولم، توضح أنها حالة يقوم فيها المصاب بالتعاطف مع المُضطهِد الذي تسبب في إيذائه أو معاناته، بل وإظهار الولاء له حتى لو اعتدى عليه، والسبب في هذا الشعور المرضي هو شدة الخوف من الإيذاء الجسدي، والظن بأن السيطرة تكمن في يد المُعتدي وأن الطريقة الوحيدة للنجاة هي التعاطف معه بل ومساندته.

والسبب في ذلك هو أن المصاب يتصور أن الوضع لا يمكّنه من القدرة على التحكم في مصيره.

«لكنه يحبني»، الجملة الخرقاء التي كنت أرددها خلال سنوات طويلة من حياتي، أرددها بمكابرة لنفسي ثم للآخرين ممن يلمسون العلاقة المريضة التي أعيشها. حتى بعد أن بدأت أفيض بشكواي للأهل والصديقات، كنت أنهي نقاشاتنا بهذه الجملة التي يستنكرونها كثيرًا، وكأنني كنت أطمئن نفسي.

كنت معذورة في هذا التخبط، فقد كان كما يتعمد الجفاء يتعمد اللطف، وكما يقدم القسوة يقدم الزهور. وكنت أضخم أفعاله اللطيفة على بساطتها وعاديتها حتى أبرر لنفسي الاستمرار. شعوري العميق بأنه لا مفر، هو ما دفعني للتبرير له والتعاطف معه بتذكير نفسي دائمًا بالظروف الاجتماعية والنفسية السيئة التي جعلت منه هذا العدواني القاسي، وأنني بدوري يجب أن أكون الحضن والاحتواء وكل هذا العبث!

الاحتواء لا يأتي بعد القسوة، كان عليَّ أن أعاني من أضعاف القسوة التي قد يتحملها بشر حتى أصل إلى هذه الحقيقة وأعدل أفكاري. إن من يؤذيني ليس شخصًا رائعًا أو مثيرًا للتعاطف، لكنه معتدٍ غير مكترث بمشاعري. الاستمرار في التعاطف معه ومساندته على سوء معاملتي لن يزيده إلا جفاءً وقسوة. كان عليَّ أن أضع الأمور في نصابها مهما عانيت من تأخر هذا التغيير وتبعاته.

أتى هذا التغيير في فترة الانعزال، وهي فترة انتقالية ما بين العمى واليقين. بدأت أعتزله كلما آذاني، لا أتسرع بالولولة المتبوعة بوضع حلول ومحاولة إنهاء المشكلة بأي ثمن قبل أن تتفاقم وينكسر قلبي أكثر. توقفت عن هذا التسرع وأخذت وقتي للتفكير الطويل المنظم. بعد مدة طالت أم قصرت كنا نعود لنتحدث وكأن شيئًا لم يكن. أعجبته اللعبة، ظن أنني لا أعاتبه ثم أدفعه للمصالحة مثلما كنت لأنني بدأت أشعر بالخطأ أو لأجنبه النكد. لم يتصور قَطُّ أن الانعزال بعد القسوة كان لأفهم أكثر، أدقق في وضعي، وأنزعه من قلبي رويدًا رويدًا.

مراحل الحزن الخمس

أولًا: الإنكار

ـ ماما انتِ كويسة؟

ـ أنا باحبك قوي يا ماما.

ـ أنا كويسة جدًّا، ناموا علشان فيه مدرسة الصبح.

كان هذا الحوار هو آخر ما دار بيننا قبل النوم، جلست بينهما في السرير بشموخ وقوة لا أعرف كيف استحضرتهما بينما كرامتي ممزقة ومهدورة، قبل هذا المشهد بدقائق كنت قد فقدت بصري لثوانٍ إثر ضربه لي على رأسي، كنت منهارة ونفسي متهشمة بالكامل، لكني آثرت التظاهر كأن شيئًا لم يكن. هكذا فعلت يوم أن صفعني في الشارع وكنا في رمضان، عندما عدت إلى البيت أعددت العصير والسمبوسك المقلي وقدمت لهم الطعام، هكذا فعلت عندما لَكَم وجهي فذهبت ببساطة لإجراء أشعة على عظام الفك، بينما فاق غضب الطبيب غضبي. كنت دائمًا أتظاهر بأنني أخرى غير الضعيفة التي تتعرض للقسوة الجسدية والنفسية من دون أن تتحرك. أنا أخرى قوية وحرة وتمسك بزمام الأمومة بقوة.

في الصباح ارتديت ثيابي، قدت سيارتي وذهبت إلى العمل، شعرت بماء دافئ تحت عظام رأسي، وأخافني هذا الشعور أكثر من الألم الذي كان يضرب رأسي بمعوله، اتصلت بصديقة تعمل طبيبة وسألتها، لم تقتنع بأن الألم نتيجة سقطة، أصرت على أن تعرف الحقيقة التي بحت بها بخجل، بلعت لسانها لثوانٍ قبل أن تسألني أين أنا، عندما عرفت أنني في العمل صرخت فيَّ: ـ اذهبي حالًا لإجراء أشعة.

كان ردي بمثابة صفعة أقوى من صفعة قسوته: ـ لكني لا أحتاج إلى أشعة، سأتناول المسكن وكل شيء سيكون بخير.

ثانيًا: الغضب

«وانتِ مال أمك؟»، هكذا وددت أن أرد على زميلة العمل التي أصرت على أنني شاحبة وبي خطب ما، في الشارع سببتُ سائق السيارة التي تخطتني بأقذع الشتائم، وسببتُ سائقًا آخر عن طريق «الكلاكس»، تشاجرت مع أمي

على الهاتف، توقفت بالسيارة في أحد الشوارع الجانبية وصرخت: «كيف يمكن أن يحدث هذا لي؟». بكيت حتى ارتعش جسدي، عندما وصلت إلى البيت بصقت على الباب، حرقت الطعام، صرخت في الطفلين، عند الغروب كنت قد اتخذت عدة قرارات متهورة. لكن رأسي ثقيل يريد أن يسقط من فوق عنقي المنهار وصدري المشتعل بالغضب.

كنت قد تعودت أن أكتم غضبي، إلى أن أصل إلى مرحلة الغليان، أنتظر أول من يفتح غطائي لأنفجر في وجهه بحرارتي كلها، لكن مع وقائع العنف كان الغضب من نوع آخر، غضب حزين يتأخر ولا تسبقه علامات، فجأة أجد نفسي أتشاجر مع كل إنسان وجماد حولي إلا هو، أشعر أنه لم يعد يستحق حتى شجاري. لا يستحق دموعي. إن كل من أبكي أمامهم بحرقة هم مصدر أماني، حتى لو كانت السيارة أو الحوائط والأرض. دفنت نفسي في النوم.

ثالثًا: المساومة

عندما استيقظت كان الغضب قد هبط في قاع قلبي ولم تتبقَّ منه إلا ذرات رماد، بدأت أرى قلق ولدَيَّ من بين حطام نفسي، على الهاتف رسائل اطمئنان ومحبة (لم أرد عليها كالعادة)، اتصالات من إخوتي (لم أرد عليها كالعادة)، دمي الباهت الذي أكلت منه الأنيميا حتى شبعت، وجهي الممتقع بالأسى، عمري الذي يمضي من دون إرادتي. فتحت اللابتوب وكتبت: سأفعل أي شيء حتى أتخطى هذا.

بدأت مفاوضات مع التغيير، وكانت عادتي أن أقول لنفسي كل صباح: «هذا يوم جديد، أعاهد نفسي فيه على أن أتغير»، لكنني أجد الكون من حولي يتغير ولا أتغير. أبدأ بمفاوضات دينية، تسبيح، واستغفار وصلاة، كأن أقول لله: «سأتقرب إليك فساعدني»، أساوم السعادة كي تأتي وأحافظ عليها هذه المرة، سأكون إنسانة أفضل، سأنخرط في عمل الخير. أدخل في مرحلة الوهم، سيصبح لي بيت أحبه، بفرش جديد له ألوان مبهجة، وغرفة مكتب تخصني بها مكتبة عصرية، به حديقة صغيرة أزرع فيها الورد وأتشمس فيها مع طفلَيَّ. يدب فيَّ أمل زائف ومتعارض: ربما يتغير ونشيخ معًا مع أبنائنا، أو ربما أتخلص منه ومن عذابي معه وأعيش سعيدة آمنة.

رابعًا: الاكتئاب

الصباح مع رجل قاسٍ يستلزم الخروج حتى خلال أعتى نوبات الاكتئاب، لم أكن أملك رفاهية أن أبقى في سريري متقوقعة على نفسي، رافضة التواصل مع العالم، يجب أن أبتعد وأخرج حتى لا يجرح اكتئابي بتأففه مني ودعائه عليَّ،

وكرهه الفواح الذي يبثه في هواء الغرفة. حملت معي اكتئاب المساء، شددت جذعي الذي أرخاه الكثير من التفكير والتحليل الذي أثمر فكرة واحدة فقط: «لا فائدة، لا أمل»، ورحلت هائمة على وجه الدنيا.

لا رغبة لي في مواجهة مجتمع العمل، أو مواجهة قلق أمي ورعونة أفكارها الساذجة. في مطعم صغير تناولت قهوتي مع رفيقتي «الوحدة»، لا أريد أن أشارك غيرها بهمومي التي لا حل لها، أداري عينَي الحمراوين ونظراتي الفارغة عن النادل والشاب المجاور لي. أمامي قائمة الطعام الذي أحبه ولا أطلبه، كتاب لكاتبتي المفضلة في حقيبتي له عدة أيام من دون أن أمسه، فقدت رغبتي في كل شيء حتى الكتابة.

الحزن يشدني من قلبي ويفقد حواسي قدراتها وروحي حضورها، الأسف على كل ما فات وكل ما أتوقعه والشعور التام بالضياع. ليس أسوأ من معاناة الإحباط إلا اضطرارك أن تخفيه بضحكة جوفاء وابتسامة تؤلم عضلات وجهك. بدأت أعترف بهشاشتي ومعاناتي الحقيقية من عدم اتخاذ القرارات التي تحمي ما تبقى مني وتعيد لي اليقين، أدركت أنني في دائرة مغلقة تدور في نفس النمط: فتات عطاء، جفاء، تعوُّد، عنف مفاجئ، غضب، لا شيء، عودة، ثم فتات عطاء. هذا الرجل أمات شيئًا فيَّ جعلني أمتن للعطاء القليل وأحتفي بالفتات، جعلني أعتاد القسوة كأنها جزء من حياتي أخاف أن أفقده. كان يجب أن أرى، قبل أن يموت إدراكي.

أخيرًا: التسليم

الخيبات لا تقاس بالطول ولا بالعرض ولا بالعمق ولا بالكثرة، الخيبات تقاس بالتكرار، تكرار نفس الأمور السيئة، نفس الأخطاء، الوقوع في نفس الحُفر. هذه هي الخيبة. معرفتي بخيبتي مع هذا الرجل لم تمنع حدوثها، لكنها زادت من وعيي تجاهها، أصبحت مدركة تمامًا أن عليَّ أن أستمر في حَفْر ممر في الجدار حتى يتسنى لي أن أهرب من الخيبة، وأرى نور المحبة والراحة من جديد.

أحفر وأنا أقاوم وأصرخ وأبكي، أرى حياتي التي تخيلتها من الثقب الذي أحفره فألوح لها. أراها هادئة، عذبة، بها كل الأماكن التي حلمت بها، والأماني الصغيرة التي لم تتحقق. نورها من الشمس والقمر والطبيعة وليس لمبة نيون فاضحة كثيرة التلف مثل حياتي بالداخل. لكني على الرغم من ذلك كلما اتسع الثقب اضطرب قلبي. «الأمل» الذي يبدو دائمًا كاسم مستهلك لألبوم غنائي ضعيف

المستوى، لم يعد يغريني. أحتاج إلى قوة أكبر من الأمل ومن الألم ومن الكتابة. التقبل، تقبل التغيير والحفاظ على ما تبقى لديَّ.

الثقب اتسع وأصبح يكفي تمامًا لعبوري، لا شيء يمنعني، حتى الذكريات القديمة والأحلام القديمة وبقايا العطف في قلبي. أنا الآن مؤمنة بأن التغيير لا يخيفني. لكني أم، يمسك بذيل ثيابي صغيران، لن يتمسكا بي كثيرًا، سيفلتاني أحيانًا ليعودا لحياة اللمبة النيون، سيتنقلان بيننا على الرغم منهما. وربما يبقيان هناك أكثر بحجة التعلق بالماضي. إنه ثمن التسليم. لا بأس. عندما تزورني الوحدة سأكتب. سأفكر في معنى كل ما حدث. وأنا أعرف أنه سيصبح ذكرى.

عتبة الخروج

إذا وصلت إلى عقدي السابع أريد أن أقرأ كتاباتي وأقول لنفسي كم أنا شجاعة لأنني استطعت أن أجسد كل هذا الألم من دون مكابرة، وإنني لم أستسلم لحياتي التي كانت في غاية الشقاء. سأكون سعيدة لأنني دفعت خوفي بكل قوة من النافذة، وفخورة لأنني وقفت في منتصف طريقي وصنعت طريقًا جديدًا لأساعد نفسي على ألا أنحرف عن المحبة، وأن أنتبه إلى العلامات حتى أصل إلى نفسي، وأن أبدأ حتى لو متأخرًا في طريق الخلاص من علاقة مُهينة.

سأتذكر سنوات مرت من عدم تقديري لنفسي، والذي كان سببه عدم تقدير الرجل، المفترض به أن يكون رفيقي في الحياة، لي. سنوات من لوم نفسي وتأنيبها والوقوع المستمر في ذنب ظلم النفس من جراء التخبط والانهزام. كانت طريقتي في شحذ الاهتمام الذي يبقي على الإنسان طبيعيًّا هي الكتابة، لم أكن أعرف أنها ستكشف كسوري وتسلط الضوء على جراحي، وأنها هي نفسها التي ستساعدني على الخروج، أو توثيق الخروج.

لا يهم إن كنت لا أعرف مصيري، كل ما أعرفه أنني خرجت ذات يوم على غير هدى إلى ما تخبئه لي الأيام، بصحة ضعيفة واتزان معدوم. لا قرارات معي، لا خيارات في يدي، كل ما لديَّ حيرة وعدم يقين وثقة مهزومة، وجروح لا حصر لها في روحي. كان عليَّ أن أفتش في مخزوني وأن أرى كل الأحداث المُخزية التي مررت بها. أرى كذلك خوفي وأنانيتي وغيرتي ومكابرتي. أرى كل شيء وأنا أتحمل مسؤوليته كاملة.

كان يجب أن أخرج من هذه العلاقة وأتوقف عن الادعاء أنني شخص آخر غير الذي أنا عليه. كان يجب أن أنقذ نفسي وأحميها، وأساعدها لمرة واحدة أن تتخذ القرارات الحاسمة، وأن تتوقف عن المشاهدة من وراء زجاج حتى لا تتحمل المسؤولية. وأنا مدركة تمامًا أن لا علاقة تنتهي بسبب طرف واحد. لست ضحية، ولست متحيزة، لكني كتبت ما عشته وما وصل بي إلى هذه النقطة.

أعترف أنني في المرة الأخيرة عندما صب عليَّ كرهه وغضبه وسخطه، كنت أعرف الشعرة التي ستنتهي بنا إلى الفراق. والرد الذي سيجعله يصل إلى أقصى درجات العنف. لم أكن مُغيبة عندما استخدمته. لم أستخدمه حرصًا على الدفاع عن كل ما يهينه فيَّ، ولا غضبًا، ولا جنونًا. كنت مدركة تمامًا لدقة اللحظة ولذروة الانفلات، ومع ذلك بإرادتي الحرة اخترت أن أرى قسوته عليَّ، حتى أعطي لنفسي المترددة دافعًا، ولخوفي وقلقي مبررًا للرحيل. كمن يقدم على الانتحار لينهي مأساته بنفسه، أو ليبدأ بروح جديدة.

الآن أجلس في بقعة هادئة أراقب نفسي، والسلام يعود لها رويدًا رويدًا. قدماي خارج الحجرات التي طالما شهدت عذابي، بعد قليل سأنزلق مرة أخرى إلى الحياة وإلى الصراعات المستمرة، سيضيع السلام. لكنني على الأقل دخلت كل الحجرات، وعرفت آلام الحب والولادة والأمومة والانعتاق من الأمان المزيف والعلاقات المشوهة. أصبحت أقوى بفهمي لذاتي وللتجارب حولي. ما زال الشارع صوب عينَيَّ يشجعني لأمُر، حجرات جديدة تنتظرني. والصفحة البيضاء أمامي تحتوي على تعبي. أعتقد أنني محظوظة لأنني أملك قلمي وقلبي.

عزيزتي التي لم تذكر اسمها،

عادة عندما أقرأ كتابًا أشعر كأنني بجانب الراوي. لأول مرة أشعر أني أنا الراوي. لقد نقلتني إلى داخلِك. رسالتك جعلتني في البداية أشعر بالذعر والجبن، وهو شعور لم أجربه في حياتي. لكن في «الحجرات» بلعتني بكلماتِك، لا أجيد التشبيهات مثلك، لكن هذا الكلام يشبه الموج، حتى إنني أكتب إليكِ الآن وجسدي كله يقشعر. ولا أعرف ما الرابط بين الموج والقشعريرة! «أعتقد أنني محظوظة لأنني أملك قلمي وقلبي»، لا تعرفين مدى سعادتي بهذه الجملة. أنا سعيد لأجلك وآسف لأجلك.

خطأ بسيط أدى إلى كل هذا. كنت أتمنى أن أكون أنا زوجك، حتى يتسنى لي أن أعتذر لكِ، أشاركك المسؤولية وأطمئن على حالك. ربما تشابه في الأسماء، أو أن حرفًا سقط سهوًا. يا سيدتي أنا لم يسبق لي الزواج من قبل، لكني أب لأولاد أختي التي فقدت زوجها قبل سنوات. كنت في انتظار إيميل مهم بنتيجة مسابقة، وهي المرة الأولى التي أشارك في مسابقة. وصلت إلى ذروة حماسي عندما وصلتني رسالتك على البريد العشوائي ولم أفقد حماسي لحظة طوال قراءتي.

جاءني إشعار بنتيجة المسابقة وأنا في عتبة البيت، لكني آثرت أن أكتب لكِ قبل أن أعرفها. سأرسل لكِ الصور التي شاركت بها، وهي لنحل ونمل وفراشات (الأخيرة ربما تلفت انتباهك). وعندما أعرف رأيك سأرسل لك مرة أخرى لأعلمك بنتيجة المسابقة. أعرف أنها دعوة غريبة لنصبح صديقين، وأتمنى أن تقبليها.

صديقك على اعتبار ما سيكون.